مكتبة
الأدب
المغربي

محمد غرناط

داء الذئب

قصص

فضاءات مستقبلية

داء الذئب

الكاتب : **محمد غرناط**

الكتاب : **داء الذئب**

الناشر : منشورات **فضاءات مستقبلية** : ص.ب.11074 ـ ساحة باندونغ
الدار البيضاء 20002 ـ الهاتف :30.12.16 (02)

الطبعة : الأولى ـ 1996

المطبعة : وليلي، شارع علال الفاسي ـ مراكش
الهاتف : 31.40.48 ـ فاكس : 31.40.56

الإيداع :1996/367

محمد غرناط

داء الذئب

قصص

منشورات **فضاءات مستقبلية**

ص.ب. : 11074 ، ساحة باندونغ ـ الدار البيضاء 20002

العداء

تقلصت الشمس في الطرف القصيّ من الارض، ثم اختفت. وانتشرت مكانها بقع سوداء كجلود حبشية. بعد برهة، انطفأت أصوات الخيل وجدران الطين القديمة. غمرني إحساس غريب بالهلع، فتأبطت جرابي وتقدمت نحو ضوء يضطرب بعيدا في فراغ ليلي مغلق، كتمت خوفي، واندفعت بجلَد عُروة، وحركة الريح تملأني من كل الجهات.

تضاعف هلعي، فوجدتني فجأة أعدو بسرعة وأصوات ناهية تتبعني. أمرتني أن أعدل، لكني اقتحمت الطريق بجرأة مهر هارب. لم أعرف كم عدوت، غير أنني لما دنوت رأيت أمامي طريقا واسعا تملأه أضواء مشعة، وعلى جانبيه تقف بيوت متتالية ذات رؤوس هائلة كرؤوس أغوال ضارية. قعدت إلى الأرض وانتظرت حتى هدأت أنفاسي، ثم حثحث جرابي وتساقطت منه بقايا خبز ناشف. جمعتها في كفّي وبلعتها بصعوبة. أسرعت وجوه العشيرة إلى خيالي. ملأت رأسي أصواتهم الناعقة. لم أعرف ماذا قالوا. لكنني حين تركتهم سمعتهم يضحكون برعونة بالغة. فتأبطت جرابي وانهمكت في السير بخطوات حثيثة.

بعد هنيهة، اقتحمت البياض، فأحسست أني طرقت أرضا عذراء. ركبني الشوق إلى مجدي، فتابعت طريقي بشجاعة وأنا أراقب حركات ظلي المتقاطعة. فجأة قفز أمامي جسد غريب، ووقف ينظر في وجهي بصمت مريب. خُيل إلي أنه واحد من عشيرتي فكرهته،. وجه مستدير يغطيه زغب خفيف. عينان منطفئتان تتحركان بعسر. أنف بدائي معقوف. طويل ومتصل، وفيه حفر متناثرة. سألني بصوت متقطع :

ـ هل أنت عائد من غزوة؟

انتظر جوابي قليلا. لم أتكلم. فأضاف :

ـ يظهر لي أنك إذا تابعت طريقك ستموت. أنت متعب. وليس بإمكانك أن تسير أكثر. زيادة على هذا أنت شيخ هرم. وبدون شك انهزمت في غزوتك.

ابتسمت وقلت له بثقة :

ـ أنا لا أهاب الموت ولا وعثاء الطريق. اعطني ما آكل إن كان معك طعام ودعني أذهب لشغلي.

تراجع إلى الوراء خطوة، وقال :

ـ وهذا الجراب.. ماذا فيه؟

قلت له :

ـ فيه البرد يا سيدي. ولهذا خرجت ليلا. فأنا أبحث عن حق ضاع مني منذ زمن طويل.

ضحك الرجل باستخفاف. ارتفع صوته حتى ضجت أذناي. تجاهلته، وشخصتُ ببصري إلى السماء. رأيتها بدون نجوم، فثنيت ركبتيّ وقعدت ببطء. غير أن الرجل صرخ من فوق رأسي زاجراً، ودعاني للنهوض بسرعة.

وقفت مندهشا وتساءلت :

ـ ماذا بك؟

قال بصوت حذر :

ـ يبدو أنك غريب عن هذا المكان.

قلت له :

ـ لا أعرف.لكني أعرف أني أبحث عن حقي في إرث قديم.

غلى الدم في عـــروقي وأنـا أنطق بـكلام آخـــر بدا لي أنـه لم يسمعه. ولّما توقفت قال بجد حيّرني :

ـ أنت مـغـامـر. أفي هذا الوقت تـقـوم بغـارة جـديدة من أجل حقك في الإرث؟

قلت في نفسي وهو يتأملني بغرابة : ليس هذا الرجل إلاّ سكيرا دنيئـاً. واقتـربت منه لأتأكد، فـشمـمت رائحة قـذرة في فمه وثـيابه الخشنة. ابتعدت عنه متقززا، واستمعت إليه يتابع :

ـ هل تعرف أين أنت؟

درت ببصري ولم أتبين شيئا. كل شيء هاجع ولا أثر للحركة. التفت نحوه ودعوته للكلام. شـدني من كتفي برفق وقربني منه، ثم همس في أذني :

ـ أنت في حيّ من أخطر أحـياء العـرب. بيوته مـصقـولة وليس فيـها شائبة. وأنت إذا طـلع عليك الصبح هنا جمـعت ذباب الدنيا. وفي هذه الحـالة تخـرج من هنا كمـا خـرج الشنفرى من قـبيلة بني سلامان. هل تعرف الحكاية؟

تملكني الرعـب وأنا أحـرك رأسي بالإيجـاب. تأملت شـفـتيـه الغليظـتين لحظة، وأحنيت رأسي. فكرت فـي الفـرار، لكن الأضـواء كانت تطوقني. رفعت نحوه عينين مضطربتين، وقلت بحذر :

ـ هل هؤلاء القوم ازديون؟

ردّ بصوت خافت :

ـ هؤلاء قطاع طرق. يحسّنون بلا ماء. وفي كل يوم يصنعون من جماجم الناس لامية جديدة للعرب. أنا لا أمزح. انظر حولك إذا لم تصدق كلامي.

سألته بغباوة :

ـ هل أنت أحد شعراء العرب؟

وغرق في الضحك بصورة استشعرت معها الألم. رجوته أن يكف ففعل. ثم قلت له مستعطفا :

ـ اعطني طعاما لأعتق روحي.

نظر إلي بإشفاق، وأخذني من ذراعي خارج الطريق. إلى مكان تخفيه عن الأضواء أغصان أشجار ملتوية. طلب مني أن أنتظره قليلا واختفى عن بصري. اتكأت على جذع شجرة ضخمة وأنا ألهث كأنما وصلت اللحظة. انتابني إحساس بالندم على قرون طويلة قضيتها في العدو. تذكرت أفراد عشيرتي فازداد ندمي. حولت بصري إلى يميني، فرأيت كلبا أبيض يقصدني بخطوات بطيئة. جمدت في مكاني دون حراك، تابع سيره نحوي حتى وصل وأخذ يتمسح بفخذي. ولما سمع صوت أقدام آتية استدار وتركني. حضر الرجل، وبحركة سريعة دسّ ما حمله في جرابي ومضى دون أن يودّعني.

صبرت على الجوع منذ أن بدأت الطريق. هكذا علمني عُروة. ولهذا أكلت من الطعام قدرا وأخفيت الباقي. ثم أسندت رأسي إلى الشجرة ونمت. وقبل أن تطلع الشمس أفقت. فوجئت بالكلب الأبيض هاجعا بقربي. مررت بيدي على عنقه ففتح عينين وديعتين.

قربته من صدري وقبلت ظهره. التفّ حول نفسه فأطلقته. رفع ذيله وأخذ يدور حولي بإيقاع هادئ. تبينت فجأة أنها كلبة بيضاء. تيقظت أطرافي بقوة وزحفتُ نحوها. التفتّ حولي بسرعة فلم أر أحدا. دسست يدي في جلدها وفكرت في شيء دنيء. ترددت قليلا.. ثم ركلتها بعنف. كتمتْ ألمها، وأسدلت ذيلها على شقها وهربت.

تأبطت جرابي وقررت أن أبدأ النهار. المكان غريب عنّي ولا أعرف فيه أحدا. أغمضت عينيّ لحظة وتخيلت نفسي أعدو. تراءت لي المسافة بدون حدود ومغطاة بسحاب داكن. التقطت أنفاسي وبدأت. الحيطان منتصبة في تصلب أخرس. الأجساد تتقاطع بلا حرارة كنمل صغير. ضجيج مبحوح يخترق أذني ويمضي بلا أثر. تضاءلت شيئا فشيئا حتى تحوّلت إلى نملة منفصلة تحمل رأسا بحجم ديك مخدوع. إلاّ أني تابعت طريقي بجلد عروة.

سألت.. فقيل لي مرّ من هنا وهنا.. إلى هناك وهناك. وسرت كدابّة سائمة. أبحث عن مجلس الشيخ علاء بن ماء السماء، ولما وجدته مسحت العرق المتجمد على وجهي وتقدمت رافعا أنفي. سمعت فجأت صوتا نسويا يسألني :

ـ إلى أين؟

التفت يميني ونظرت بحياء. وجه امرأة في وسطه عينان منحوتتان بعمق. قلت لها بتلعثم :

ـ أريد لقاء الشيخ علاء بن ماء السماء.

ابتسمت المرأة بنبل، وقادتني إلى مجلسه داخل ممر منقوش برخام مضيء. وفي بقعة واسعة محاطة بنبات حوشي رحّب بي الشيخ وانصت لي على غير انتظار. حكيت له قصة الإرث وأطوار

رحلتي الطويلة، فقال لي «ماضاع حق وراءه طالب..». ووعدني بأن أرجع عنده غدا صباحا ليعالج أمري. وعدت راكضا إلى مكاني.

انتفضت لاهثا، وفتحت عيني، فوجدت الكلبة البيضاء تدور حولي. تنفست بقوة. فتحت جرابي وأخذت ما تبقى، وهمست لنفسي : من قال إن حاتما اسمح الناس فقد ظلم عروة. اقتسمت الطعام مع الكلبة وطردتها دون تردد. وبعد قليل بدأت نهاري.

نهضت ببطء، وأخذت طريقي. سألت، فقيل لي مرّ من هنا وهنا.. إلى هناك وهناك. وسرت كما لو أنني كنت أحلم. تعثرت كثيرا وسط ألوان كثيفة تحدّ من نطاق بصري، حتى كنت في ساحة دائرية تحمل اسم رجل أعجمي. تساءلت بذهول : من تكون هذه الوجوه الداكنة التي تملأ الساحة؟ وأخذت أتنقل بنشاط غير مألوف. رؤوس ضخمة مرتفعة. عيون ذات صفرة فاقعة تتطلع إلى باب الشيخ علاء بن ماء السماء.

همست لرجل واقف :

ـ لماذا يزدحم هؤلاء هنا؟

ركز عينين حادتين في وجهي وقال :

ـ إذا كنت غريبا فغادر هذا المكان بسرعة.

أخذت أرتجف بصورة مفاجئة. تساءلت إن كان هو الرجل الذي التقيت به ليلة البارحة. فكرت أن أسأله، لكنني خشيت أن يتهمني بالغباوة. بحلقت في وجهه لحظات. نظراته شرسة برغم الصفرة التي تغطي عينيه. أنفه كأنف عروة تماما. كدت أسأله، إلا أن الخوف منعني. فلذت بالصمت لحظات، ثم تشجعت وتساءلت مرة أخرى :

ـ لماذا يزدحم هؤلاء هنا؟

التفت نحوي ونظر إلي بغضب. ثم لكزني بمرفقه وبصق على الأرض. دفعت خطواتي بين الجموع. فكرت أن أفرّ إلى دفء الظلمة لأبقى مستورا. ارتبكت. وجدت نفسي محبوسا وسط الأجساد المحتشدة. كنت ألهث. أنفاسي تتلاحق بسرعة. نزلت فجأة يد ثقيلة على كتفي ، انتفضت والتفت ورائي. هو عروة بالفعل. كدت أقفز لأعانقه وأقبله بين عينيه. تراجعت وأنصت إليه يقول :

ـ ألم تعرف أيها الصعلوك الغبي أنك اكتشفت مدينة جديدة؟

تساءلت باستغراب :

ـ أية مدينة هذه؟

قال ضاحكا :

ـ ولماذا تبحث إذن عن حقّك في الإرث؟

قلت بثقة :

ـ هو أنت بدون شك.

قال باختصار :

ـ هذا لا يهم.

وشخص ببصره بعيدا. جمدت في مكاني. وبعد ساعات طويلة، انفتح الباب الواسع المقابل للساحة. انتفض الجميع، وعلت همهمات متصلة. ثم ظهر الشيخ وعمّ صمت مريب.

لم ينتظر طويلا. بسرعة فائقة سوّى المنديل الذي يحيط بعنقه وصاح بصوت قوي :

ـ ثابت بن جابر بن سفيان.. أو ثابت بن أبي كبير الهدلي.

خفق قلبي بشدة. ارتجفت ركبتاي حتى كدت أهوي. عادت الهمهمات، ثم ما لبثت أن انقطعت، وتلتها أصوات ممطوطة تقول مرة واحدة :

ـ حا .. آ .. آ .. ضـ .. ر ..

وعلا صوت علاء :

ـ القضية ماتزال غامضة. فلابدّ من الانتظار زمنا آخر حتى ينتهي البحث.

رفعت رأسي باتجاه علاء. فضاء نحاسي ممتد. رأيته يدخل والباب يغلق خلفه بهدوء صارم. تأوهت ونظرت حولي بمرارة. رؤوس ضخمة، وبداخلها عيون صفراء متسائلة. وبحركة متوترة تفرق الناس. وبعد زمن عادوا إلى مكانهم. لم يفتح الباب. من أعلى ظهر علاء، وأعطى بصوته القوي وعدا آخر. تتالت الأزمنة بملل، وفي كل مرة يرتفع وجه علاء، ويردد وعده، ووجهه يشمخ شيئا فشيئا نحو السماء إلى أن اختفى، ولم يعد يسمع إلا صوته يأتي من موضع شاهق يملأ الساحة المكتظة. وكنا مثل النمل نجتمع لنتفرّق، ثم نجتمع لنتفرق.. غير أن رؤوسنا تزداد كل يوم ضخامة، وعيوننا تزداد صفرة.

الكلب والشيطان

في البدء،

كان الله،

ولا شيء غيره،

ثم.. خلق العالم.

قال الطبري : وكانت المدة ما بين ابتداء الخلق إلى الفراغ منه سبعة آلاف عام.

رفع الكلب رأسه إلى السماء ونظر بخشوع، ثم أحناه وتساءل: فهل انتهى العالم الآن يا سيدي؟

قال الطبري : خلق الله آدم على عجل وأسكنه الجنة، وأمر إبليس بالسجود له، وأخرجه منها، فتلك الساعة التي تقوم فيها الساعة.

قفز الكلب بمكانه، وضرب على الأرض برجليه الخلفيتين، ووقف يراقب الطبري يختفي ببطء في مداد تاريخ الرسل والملوك. تحسس وجهه بخوف، فلم يعثر على طول به. اطمأن إلى نفسه. كلب ليس كباقي الكلاب. يفعل ما يفعلونه. غير أنه لا ينبح مثلهم. ولهذا، أحبّهُ الشيطان حبا كبيرا.

عندما سأله «هل وجدتها؟» لم ينبح، ولم يفكر في ابنة عمه ليلى. اتكأ على ظهره وابتسم طويلا رغم التعب والحزن. وقال بأسف شديد : «لست قيسا ولم أعثر على الدجاجة...». ابتسم الشيطان أيضا. وبدا فمه مغارة سوداء. لم يخف الكلب. حرّك رأسه بخفة، وتفحص وجه الشيطان قليلا. ارتاح إليه، فقعد إلى الأرض بهدوء وأنصت إليه يقول :

ـ أدلّك على مكانها، شرط أن تؤمن بي، وتكون صديقا وفيا لي. لم أطلب منك شيئا كبيرا. لك ما تشاء مقابل أن نكون صديقين مثاليين.

برقت عينا الكلب، وانتصبت أذناه لحظة فوق رأسه، ثم ارتختا على حنكيه. وافق بانحناءة من رأسه. ولما فتح فمه ليتكلم اختفى الشيطان. انتفض في مكانه وكاد ينبح. دار بعينيه، ولم يره، فانطلق يعدو بجنون كبير. نسي ليلى، ونسي الدجاجة، وأخذ يبحث بشغف عن شيطانه.

مرغ الطبري شفتيه في المداد، ورفع رأسه قائلا : كان الملائكة المخلوقون من نور، والجن المخلوقون من نار السموم يتقاتلون، وفي إحدى الغزوات سبى الملائكة الطفل إبليس، فصار يتعبّد معهم، وثقف علما واسعا حتى فاقهم جميعا، ثم لم يلبث أن أصبح خازنا من خُزّان الجنة، له سلطان السماء الدنيا وسلطان الأرض..

صمت الطبري ونظر الكلب في وجهه. كان مثل قط كبير عائم في الدم. تمتم بإشفاق : يفعلها التاريخ! وتابع العدو بإصرار. تنقّل طويلا بين البيوت والمزابل، وفي الطرف الآخر من المدينة وقف يلهث. رغب في النباح. وتذكر أنه لم يتعلمه. همّ بالبكاء، وفجأة ظهر الشيطان وهو مايزال مزهوا بانتصاره على جن الأرض. قيل إنه حاربهم حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال. انحنى الكلب

بإجلال ليقبل يده، فسحبها بسرعة من تحت فمه ومصّ بلذة قبل أن يفتح عينيه على الفراغ.

قال الشيطان :

ـ لماذا لا تبحث عن الدجاجة إلاّ في الليل؟

أجاب الكلب :

ـ قيل لي إن دجاج الجنة لا يظهر إلاّ حين ينام الانس والجن..

مسح الشيطان على لحيته ضاحكا، وسوى السلهام فوق كتفيه. سعل سعلات متتالية ونظر إلى وجه الكلب قائلا :

ـ اخبرتك الشيخة مسعودة بتْ لحرام.

ـ تماما. هي التي أخبرتني وأعطتني أملا كبيرا في الحصول على دجاج الجنة..

قال بحسرة :

ـ يخ... سأمسخها في الايام القادمة. خانت العهد بعد أربعين سنة من العشرة. قضت حاجتها والآن حاولت رجمي.

صمت قليلا وأضاف :

ـ ومع ذلك فإنها لا تعرف سرّ الجنة. أنا أعرفه لأنني كنت واحدا من خزانها.

قال الكلب بلهفة :

ـ أخبرني بسرعة. في أي مكان أعثر على الدجاجة؟ أريد أن أطفئ جوع الدنيا بدجاج الجنة.

قال الشيطان :

ـ إذا اتفقنا على الشرط هان كل شيء.

ردّ الكلب بصوت مطيع :

ـ إنني منذ الآن صديقك وعبدك.

وانحنى على يده ليقبلها، فقبل الفراغ بلذة. نفخ الشيطان سلهامه ببطء حتى بدا كطائر خرافي يفتح جناحيه للريح. أخذت الكلب رعشة حادّة، فتقلص في مكانه، وبعد لحظات وجيزة، أرخى أذنيه الطويلتين واستمع للشيطان يقول :

ـ اذهب تحت تلك الشجرة الصخمة (أشار لها بيده) واقعد حتى آخر ساعة من ساعات الليل. اذكرني كثيرا. سترى دجاج الجنة آتيا من هناك (أشار إلى الظلام بيمين الشجرة) اتبعه وابحث عن دجاجتك. إنه لا يمكث إلا وقتا قصيرا.. قل لي.. أي لون تحب؟

قال بفرح :

ـ الأصفر يا سيدي. لون نوارة الشمس.

ابتسم الشيطان وقال هازئا :

ـ زهواني مْعَ رَاسكْ. كلبْ واشْ من كلب نْتَ. ماذا تسمى قبيلتك؟

ردّ الكلب بحزن :

ـ قبيلتي لم يذكرها الطبري، قيل إنها قديما عرفت عاما سموه عام الجوع، إلاّ أن هذا العام لم ينته بعد فيما يبدو. المهم يا سيدي.. دجاج الجنة مضمون.. أليس كذلك؟

قال الشيطان بلهجة جادة :

ـ لا تشك في ذلك. فقط. عليك أن تكون يقظا، وذكيا، وواعيا. أي، عليك أن تكون شيطانا..

وكان الله،

ولا شيء غيره،

ثم. خلق العالم.

قال الطبري : وتمت النفخة، فصدع الملائكة بأمر الله وأبى ابليس السجود.. ولما رأى الله هذا الصنيع من ابليس أيأسه من الخير كلّه وجعله شيطانا رجيما وسلبه ما كان أتاه من ملك السماء والأرض، وعزله عن خزن الجنة وأخرجه منها..

مسكين!

تمتم الكلب وتثاءب. أحس بضربة مباغتة على رجله مثل التي أصابت آدم . وسمع بنفسه صوتا كصوت الفخار له صلصلة، يدخل من فيه ويخرج من دبره. قال، وتوسد تاريخه ونام. أما الشيطان فقد اختفى في مكان ما. جمد الكلب في مكانه يحلق ببلاهة. بحث ببصره في الظلام على يمينه، والاضواء الباهتة على يساره. انتظر طويلا. وفجأة ظهر بين الضوء والظلام لون أصفر. كاد ينبح من الفرح. تتابعت الألوان، وعيناه ثابتتان على الدجاجة الصفراء. همّ بأن يتقدم نحوها. ارتجّ جسده، وتراجع. ركبته برودة غريبة. قعد إلى الأرض، ومدّ يديه أمامه. دفن بينهما رأسه وأخذ يحلم. أغمض عينيه برهة وفتحهما، فرأى الشيطان واقفا تحت بصره بحجم كفّ اليد. تطلع إلى وجهه ولامه على تأخره. ثم طلب منه أن يتقدم منها بسرعة قبل أن تطير إلى الجنة، أو يختطفها جنّ من الذين سكنوا الأرض. شخص ببصره إلى الدجاجة، فرأى ليلى تختال بريش أصفر وتمنى (دون شك) أن يسكن معها الجنة. شتم الحياة الدنيا ودنا منها ببطء..

قال بصوت واثق :

ـ مساء الخير يا أهل الجنة.

التفتت مذعورة وصرخت :

- من؟

قال بهدوء :

- كلب من كلاب الدنيا..

تأملته قليلا، واستفسرت قائلة :

- ياك لاباس آسيدي؟

ردّ بسرعة :

- لا. والو باس. غيرْ لبلاَدْ مابْقَى فيها ما يتكلْ. ولهذا قصدتك. والذي يقصد أولاد الخير لا يخيب. باختصار يا لالة، أريد شبعة فاعلة تاركة..

نفشت ريشها وقالت بغضب :

- ياك مانْتَ سكران؟

قال وقد انخفض صوته قليلا :

- لا. غير الجوع وخلاص.

حدّقت فيه بارتياب وهمست :

- انت كلب بالفعل..

- بالفعل؟! لا.. أبداً، الأيامْ وقلةْ الشي فقط. لولا الجوع لكنت الآن مثلك ألبس ريشا أصفر.

تراجعت إلى الوراء، وحطت جزءها الأسفل إلى الأرض. تأمل رأسها العالي، وعنقها الطويل، وجسدها النابض، فتضاعفت رغبته إليها. بدا أكثر حزنا، ومع ذلك لم ينبح. تنهّد سراً وأضاف:

- الجوع يا لالة مسخني. إذا شبعت صرتُ بلاشك مخلوقا

آخر. هيا شبعيني قبل أن يكتب أولاد الطبري تاريخ الجوع والكلاب.

تساءلت الدجاجة :

- شكون أولاد الطبري؟

قال موضحا :

- إنهم المتورخون الذين يحفظون تاريخ الرسل والملوك وما إليهم..

ابتسم والدجاجة تنصت له بدون اهتمام. ثم أضاف بشجاعة :

- قصدتك يا لالة، والمقصود الله، شبعيني شبعة تحمر الوجه. أنا بحاجة إلى أن آكل، وأن أسكر كذلك.. ولاشك أن خمركم لذيذ... أما عندنا فكل شيء حارّ مثل القطران..

نهضت فجأة وقالت بجدّ :

- إيوا حدّ لحلاوة زبيبة. هل تعرف مع من تتكلم أم لا؟

قال مستعطفا :

- غير شوف الله يهديك ألغزال..

نظرت فيه بحقد، وبدا على وجهها أنها تريد أن تنقضّ عليه. وبعد لحظة صمت، بصقت على الأرض أمام وجهه، وقالت له باستخفاف بالغ:

- سير ألكانبو تقضي حاجتك..

ثبت في مكانه، ولم يدر كيف تحولت ليلى إلى نقطة لا لون لها. أخذت تختفي شيئا فشيئا، وتبتعد عن عينيه. ارتجّ رأسه، ولم يقدر على العدو. فكر طويلا، وأخيرا نبح مثلما ينبح الكلاب. نبح

بقـوة. غيـر أن الصـوت خانه، وقف الشـيطان أمـامه بدون سلهـام. حاول أن يقنعه بالتراجع، فلم يفلح. قال له :

«حاول مرّة أخرى..»

فلم ينقطع عـن النباح. وظل فـمـه مـفتـوحـا ينبح بلا صـوت، والشيطان يعد النجوم بخوف واحدة واحدة..

السّمكة

اللحظة..

لا أحد يعرف ماذا يدور برأسي. ولا أحد يراني. أنا وحدي أرى نفسي. وأعرف ماذا يدور برأسي. أراني بعينين كبيرتين مشتعلتين، ورأس مسطح، وفم واسع لا حدّ لاتساعه. ضخما.. والاشياء من حولي صغيرة لاظل لها. وبين حين وآخر ازداد ضخامة. وكلما كبرت ضاق الدكان عن احتوائي. شيطان غريب سكنني. اللحظة بالذات.. يدعوني بصوته العجيب قائلا : تشجعْ. وحرّك يدك بانضباط. من يكون؟ اطعنه في الجهة اليسرى من صدره. لا تخف. لا تتردد. اغرز السكين بين أضلاعه لتصيب قلبه المقيت. وسيتهاوى أمامك خائراً مثل ثور بري أجلف. ويسألني : ماذا تنتظر؟ هل أنت خائف؟ ثمة شيء غامض يمنعني ويتواصل لهاثي. تتصاعد أنفاسي حارة لافحة. وصوت الشيطان يهزّ داخلي. ويمتد عميقا في كل أحشائي.

اللحظة..

لا أحد يعرف ماذا يدور برأسي. ولا أحد يراني. بدا لي ضئيلا. شاحبا. ومن فمه تفوح رائحة كريهة. تناولت السكين

وقصدته دون تردد. صاح الشيطان في داخلي بصوت عال : برافو! وتقدمتُ خارج الدكان ووقفت بجواره. رفعت السكين فوق جبهته فبرقت عيناه وتقلص تحت بصري. أراد أن يفرّ، فأمسكته بيدي الأخرى وهويت على صدره في خيالي. طعنته طعنة ثابتة. فغمرتني سعادة عميقة ، وسمعت الشيطان يصرخ في داخلي :

برافو! ها انت قد قتلته..

نزّ الدم من بين ضلوعه وتهاوى فعلا أمامي كثور بري أجلف وقلت أخاطبه في نشوة :

ـ هذا جزاؤك أيها الخادم اللعين.

والدم يفور على لباسه، سمعته يسألني :

ـ ماذا يدور برأسك يا نذل؟

ولبث صامتا..



ـ أنا؟؟

ـ نعم أنت.. أما أبوك فلا شأن لي به.

أنا لا أصلح لشيء. لا ماسح أحذية. ولا سائق عربة كارو. فأحرى أن أكون بائع سمك.. ما كاين باس. لم أرد عليه. تحملت شتائمه بصبر. واحنيت رأسي وجعلت أتأمل السمكة. رأيتها مثل نصف قمر مشع. مسترخية في استسلام طفولي. قشرتها. لونها. طراوتها. امتلاؤها.. هزت جميعا مشاعري. وفكرت أن أعيدها إلى الصندوق. قبل لحظات كانت ماتزال تشهق كما لو أنها غادرت الماء الآن. عرفت أن الحياة لا يمكن أن تعود إليها. وقلت لنفسي بعد

تردد قصير : من الأفضل أن أحملها إلى بيتي. هذا حظي. فلماذا أمنع نفسي؟ لكن إذا فعلت ذهب كل جهدي هباء.

وأنا أفكر، وقف أمامي شيخ ملتح، ولهج بتحية مبحوحة. ثم أخذ يلتهم السمكة بعينيه، وهو يحرك شفتيه حركة متأنية. ويمصهما، ويبلع ريقه ببطء. نظرت في وجهه قليلا، وقلت لنفسي : مُحال.. هذا الوجه لا يقدر على السمك. رأس صغير. وعينان غائرتان. مسح على لحيته القصيرة وتنهد. ثم سألني عن الثمن. أحسست وأنا أجيب أنني أبيع جزءا غاليا من جسدي. ولو كان بإمكاني أن أفعل لمشيت خلف كلماتي، وأمسكت بها ورتبتها واحدة فوق أخرى وأعدتها إلى فمي.

جف حلقي، وأخذ قلبي يدق بسرعة وأنا أسمع دقاته تتصاعد بوضوح. عليّ إذن أن أعتذر لينصرف من أمامي. ثم أغلق الدكان فورا، وأحمل السمكة إلى بيتي الصغير. أضعها على مائدتي الخشبية واحتفلُ بعيدي. هذا شأني. ولا يهم أحدا.

فمم أخاف؟

تشجعت. وقبل أن أتكلم وافق الشيخ بصوت أربكني. ثم أدخل يده في جيبه وسحب ورقة نقدية مدها لي وطلب مني أن أعيد له الصرف. وثبتُ إلى الخلف وكدت أعوي. فارتج الشيخ وقوس عينيه وأخذ يتأملني من تحت حاجبيه. حركتُ يدي بالنفي. فسألني مأخوذا عما بي. ودون تردد اعتذرت عن بيعها قائلا ان الثمن الذي طلبت لا يكفيني. وأخذت أحرّك رأسي يمينا وشمالا وأنا أنظر إلى السمكة هامدة تحت بصري. ثم بلعت ريقي وأضفت :

ـ هذه سمكة غالية. ومن نوع نادر. لهذا يا شيخ أريدها لنفسي فأنا أحقّ بها.

رمقني بقسوة، وقال غاضبا :

ـ أنت حيوان.

تساءلت في اندهاش :

ـ أنا؟؟



جمدت بمكاني لحظات طويلة. ثم عادت إلي الحركة بصعوبة، ومددت يدي ببطء إلى السمكة لآخذها وأعيدها إلى مكانها بالصندوق لتنعم ببرودة الثّلج حتى يحين موعد عودتي إلى البيت. غير أن الشيخ أمسك يدي بضغط شديد واقتلعها من فوق السمكة. وقال بلهجة حاسمة :

ـ هذه السمكة لي. وقد اشتريتها منك، وأديت لك الواجب. والصرف مازال عندك وأنا أنتظر أن تعيده لي.

قال وبصق على الأرض في تأفف. رفعت يدي بكل هدوء. وانتظرت أن يخف غضبه. لكنه ظل يرتجف بشكل أثار عطفي، فانحنيت على وجهه وسألته باسما :

ـ من أين أتيت يا شيخ؟ يبدو لي أنك غريب عن هذا المكان.

ردّ بصوت مرتفع :

ـ هذا لا يهمك. منذ أيام وأنا أبحث عن سمكة كهذه. من

فضلك. لا تترك أعصابي تحترق. اعطني الصرف ودعني انصرف لشغلي.

قال الكلمات الأخيرة في شيء من التودد. كان كما لو أنه يتضرّع إلي. شيخ صغير يتمنى سمكة كبيرة. كدت أسرع إليها وألفها في الشريط الأبيض المشمع، وأقدمها إليه. لكنني تراجعت. قد أندم. فأنا أولى بها. رفعت رأسي وقلت له في أدب:

ـ معذرة يا شيخ. لن أبيعها..

وقذفت أمامه بالورقة النقدية. احتقن وجهه، وهو يضغط بأسنانه على شفته السفلى. وحين مد يده ليأخذ الورقة غمرني شعور بفرح طاغ. وتشاغلت بتصفيف السمك والثلج الأبيض الناصع.



سمعت فجأة صوت سيارة تقف بباب الدكان. رفعت بصري فرأيت رجلا أنيقا. منسق الهندام، مرتفع الرأس، متين الجذع، وعلى عينيه نظارة عميقة السواد. قصدني في خطوات هادئة موزونة. ودون تحية، أخذ يتفحص السمكة والشيخ واقف دون حراك يردد عينيه مشدوها بين السمكة والرجل. نصف قمر حقيقي. مضيئة. غافية تماما. في براءة وكبرياء. فكرت قليلا وصممت أن آخذها من مكانها وأخفيها عن العيون. مد الرجل يده وأخذ يداعبها برفق ويبصبص لها كما لو أنها صبية عثر عليها في دكاني، وهي مستسلمة لأنامله البيضاء. لا تقاوم. ولا تقول شيئا. ثم رفع عينيه نحوي وجرت على فمه ابتسامة صغيرة وقال:

ـ هذه السمكة.

ابتلت جبـهتي بعـرق بارد. وتسـارعت أنفـاسي. صمـمت أن آخذها وأضمها إلى صدري وأعانقها. ثم أتأبطها وأفر بها إلى البيت لأحتفل بعيدي. لكن الرجل قال لي بلهجة آمرة :

ـ هيا اسرع.

وأدخل يده في جيبه. قلت له في انزعاج :

ـ والثمن؟

قال :

ـ الثمن معروف.

لم أتجـرأ علـى الردّ. والشـيخ مـازال يردد بصـره بـين الرجل والسـمكة. مـاذا يحـدث لو قلت له : لا.. أنا أرفض بيـعـهـا لك. وغيرك أيضا؟ سيكون ذلك دون شك شيئا رائعا. تمليت قليلا. وبعد لحظة قصيرة، قلت له :

ـ هذه السمكة غالية. وهي من نوع نادر..

قال في شيء من الزهو :

ـ لا يهمّ. كم تطلب فيها؟

قلت بصوت حازم :

ـ لو اعطيتني فيها الدنيا كاملة فإنني لن أقبل .

حدّق في وجهي بعينين قاسيتين وقال :

ـ أنت مخبول. ما في ذلك شكّ. وسأفعل معك اللازم..

* * * *

هكذا صـارت السمكـة حبيبـتي. اللحظة بالذات، قـررت أن

أذوذ عنها.، كنت ثابتا بمكاني، ولا أحد يعرف ماذا يدور برأسي. لا يهم إذا ارتكبت إثما. ولو كان فظيعا. سمكتي قطعة من ذهب نفيس. وهذا ما كنت أبحث عنه. أدار الرجل ظهره نحوي، فبدا لي مثل حصان سيّء. ولاحقته ببصري حتى اختفى. ضحك الشيخ ضحكة مكتومة. وهذه المرة لم يشتمني. وإنما همس في أذني دون جدوى : دعني أفوز بها. نفيتُ بإصرار، وطلبت منه أن يبتعد، فارتد خطوة وظل ساكنا. لم يغب الرجل طويلا. عاد بعد لحظة، وبجواره يمشي شرطي حاني الظهر وهو يشير له بأصبعه إلى الدكان. وما كاد يقف حتى صاح بوحشية :

- هذا النذل!!

واردت أن أتكلم، فمنعني من الكلام قائلا بصوت مرتفع :

- اسكت وإلا حطمتُ أسنانك واحدة بعد الأخرى.

كانت نظراته شرسة. الرجل واقف في اعتدال وعلى فمه ابتسامة لا معنى لها. لم أفهم شيئا. وبدا لي ما يحدث غريبا. هجم الشرطي على السمكة، وقربها منه، وقال يخاطبني :

- هات الكاغط. واطلق راسك.

تحول الدكان إلى قفص صغير. بلا نور ولا هواء. أحسست بالضيق وأخذت أرتجف.

سألته :

- ماذا تنوي أن تفعل؟

أجاب وعيناه تمتدان نحوي :

- اسمع. هذه السمكة للسيد. وعليك أن تفخر. فشأنك سيكبر إذ وقف أمامك. ألا تستحيي يا نذل؟ رجل قدّ الدنيا. بكل نبله، وعظمته، وجلاله.. تردّ الكلام في وجهه..

نطقت بصعوبة :

- وكم سيدفع؟

ومدّ لي وُسطاه بلا حياء قائلا :

- خذ. لن يدفع لك قرشا واحداً.

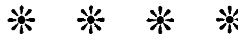
تساءلت :

- لماذا؟

قال ناهرا :

- هل تسكت أم لا؟

وسكت. لم أستطع أن أضيف كلمة. خبأت لساني وأخذت أراقب بعينين مبهورتين. الشيخ ثابت بمكانه ينظر في وجوم. والرجل يحرك رأسه في كبرياء. والشرطي يلف السمكة. وأنا؟ صامت.. حتى إذا ما انتهى قدمها له في حركة توحي بأنه يقدم له هدية. غير أن السيد لم يأخذها منه، ودعاه لأن يتبعه. وبطاعة متناهية، استدار نحو السيارة الفارهة. رأيته يمشي بخشوع وهو يحمل السمكة ملفوفة بين يديه، ثم وهو يضعها في سيارته، ويقول له : بالصحّة والعافية آ سيدي..



أقلعت السيارة وانطلقت بالسمكة نحو مكان ما. انصت لصوت محركها يبتعد حتى اختفي عن سمعي. اجتاحني شعور بالجنون، وأخذت أصرخ وأشتم في خيالي. لم يسمعني أحد وخرجت. وتبعت السيارة. ركضت خلفها في كل الطرقات. وبحث عن السمكة في كل البيوت. لم أعثر عليها، كان مكانها

فارغـا. ولمحتُ الشرطي فجـأة يقف بباب دكاني. تفـرّس في وجهي لحظات وأنا جامـد أمامه، وداخلي يـهتزّ اهتـزازا عميـقا. كنت أفكر في السمكة وأخالني عثرت عليها. لم أعرف لماذا عاد الشرطي. نظر إلي بعينين بذيئتين، فوقهما حـاجبان كثيـفان، وأنا أنقل بصري بين وجهه وسكين طويلة، حادة، لامعة، أقطع بها السمك.

كنت صامتا حين سألني :

ـ ماذا تقول؟

ثم أضاف وأنا ما أزال صامتا :

ـ هل تسكت أم لا؟

ولبث صامتا. وأضاف بصوت عال :

ـ قلت لك هل تسكت أم لا؟

ابتـسم الشـيخ هازئا وقد غـطت وجهـه سـحابة كـابيـة، وترك مكانه. التـفت هنـا وهناك ولم أر أحـدا يرقـبني. ركـزت فـيـه نظرة طويلة. رأيته في لباسه الرمادي، وحزامه الأسود، وعلى يمينه مسدسه الصغير، فانتفضت.

سمعته يسألني :

ـ ماذا يدور برأسك؟

وهذه المرة لم أخش شيـئا. وانتـصبت أمامـه عملاقـا ملأ بطوله سماء المدينة..



في المساء عاد الشيخ الضئيل، يحمل قفته المهترئة بيمينه، في معطفه القديم الباهت اللون. وجدني واجما حزينا، ممتقع الوجه، أتقطع ألما. سألني :

ـ هل عثرت على سمكة أخرى؟

حركت رأسي بالنفي.. دون أن أنطق بكلمة.

بوغابة والحطاب

أفاق بوغابة من نومه ورأى شمسا أخرى تطلع عليه. لم يصدق، فحرك رأسه مستغربا من نفسه وتقدّم ببطء خارج الغابة. على بعد خطوات من أسلاك السور قعد واجما. ولما رأى الحطاب يصعد طريق الغابة نهض من مكانه مفزوعا وقصده ببطء. حتى إذا ما كان أمامه، حدّق في وجهه بنظرات ليس فيها تهديد أو سطوة. غير أن الألوان المتداخلة في عينيه تعلنان عن جموح يكاد يكون منطفئا. التفت نحو الغابة ونظر إلى الأشجار متحسرا. نكس رأسه لحظات وجيزة، ثم رفعه قائلا :

ـ أراك خائفا أيها الحطاب. ألم تصدق ما قلته لك؟

حرك الحطاب رأسه بالنفي، وبحلق بحيرة وفي يده التي تمسح برفق على شاربيه ارتجاف خفيف. نظر بوغابة خلفه وقال كما لو أنه يؤكد لنفسه وللحطاب ما قاله أمس :

«خرجَتكَ آلغابه يدخلك من بغا.. سبع ولاَ ضبع..»

ابتسم الحطاب ابتسامة متوجسة وقال بصوت خائف :

ـ أنا أعرفك أكثر من غيري. وأفهمك. ولهذا أظن أنني الآن في حلم لا شأن لي به..

قال بوغابة وعيناه جاثمتان على وجه الحطاب :

ـ كن على يقين أنني أغادرها وليدخلها بعدي من شاء. لا تشك في قولي هذا. وصدقني أن الغابة لك ولن أمنعك من الدخول إليها منذ الآن.

رمقه بنظرة سريعة فيها انكسار شنيع. ثم أدار وجهه وأخذ في خطوات مستسلمة طريقا منخفضا في أرض خالية. راقبه الحطاب وهو يبتعد عن بصره في وَهَن. فكان كنقطة ثلج بيضاء ظلت تذوب شيئا فشيئا وتصغر دون توقف إلى أن غابت تماما. حوّل عينيه نحو الغابة على قرب منه، فبدت له كمدينة مسحورة، مسكونة بوحشة لا نهاية لها ومغلقة على أسرارها المكتومة..

اهتز فجأة بمكانه وأخذ يتضاءل. صعّد أنفاسا ساخنة قوية وطرطق أصابعه الغليظة وهو يتمتم بكلام غير مسموع. تحركت شفتاه بسرعة وبدا على وجهه توتر ساحق، فكان كما لو أنه يشتم أو يتوعدُ أحدا. وبعد لحظة، توقف وأخذت أنفاسه تهدأ. ثم بحركة مضبوطة اعتدل دون ارتباك وألقى على كتفه الحبل المفتول بعناية لا حد لها. وبإيقاع هادئ مرتب، دخل الغابة، وقصد بلا تردد مأوى البوهالي. كان يسير غير آبه بأصوات الطيور وخشخشة الأعشاب الجافة. الأشجار حولهُ مائلة، ملتوية الفروع، متكاثفة، جاثمة في سكونها المحبوس. وقف على باب المأوى المصنوع من أغصان الشجر ونادى بصوت عال..

بعد لحظات أطل البوهالي برأسه من وسط الأغصان ونظر إلى الحطاب في تساؤل. ثم قال :

ـ أخبرتك أمس أنني لن أساعدك اليوم. وربما غدا كذلك. عليك أن تذكر أنني في غاية التعب. هل أحضرت لي معك طعاما؟

رد الحطاب :

ـ جئت أولا لأقول لك خبرا جديدا. وبعد ذلك افعل ما تشاء.

تساءل البوهالي :

ـ والطعام؟ أنا أكاد أموت جوعا هنا...

قال الحطاب :

ـ اسمع أولا. أخبرني بوغابة مرتين أنه ترك الغابة ومضى إلى غير رجعة.

دنا منه وعيناه هامدتان لا حركة فيهما وقال متسائلا :

ـ وهل صدقته أيها البئيس؟

رد الحطاب بصوت واثق :

ـ هو نفسه الذي أكّد لي مرتين بباب الغابة. قال إنه خرج من الغابة وليدخلها بعده من شاء. ويقصد أن علينا أن نتدبر أمورنا بأنفسنا. وهذه هي الحقيقة. فبوغابة شاخ وصار غير قادر على حماية الغابة لنفسه.

حرك البوهالي رأسه حركة خفيفة وقال بصوت مكتوم :

ـ أنا لا أصدق هذا الكلام. بوغابة يشبه الدجّال الاعور في خداعه وخبثه. وأنت تعلم ذلك. ولهذا لا أفهم كيف أنك ثقت فيه بسهولة وصدقت أقواله.

رد الحطاب ضاحكا :

ـ أنت تتحـدث عن بوغابة كـما لو أنه مـازال في أيامه الأولى. لقد انتهى الآن كما انتهى الدجالُ من قـبـل. و ما عـلـيـك الآن إلاّ أن تصـــدق. على كـل حـال. تـعــال مــعـي وهــيء نــفــســك للعمـل.

تساءل البوهالي مرّة أخرى :

ـ والطعام؟ أنا أكاد أموت جوعاً هنا.

نظر في وجهه مشفقا وقال باختصار :

ـ فيما بعد سيأتيك الطعام.. هيا للعمل الآن..

كتـم البوهالي حيرته وتبـعه في صـمت. وتحت الأشجـار، في أمكنة لا يتـمكن منهـا النور، ولا يسمـع فيـها غيـر أصوات خـفيـة لحشرات لا ترى، انشـغل الرجـلان لوقت طويل في جـمع الحطب. ولما انتـهيا قـعدا في مـقابل بعـضهـما. تأمل كل منهـما وجـه الآخر المخضـوب بالعرق والغـبار. وتبـادلا حديثـا مقـتضـبا لايأس فـيه. ثم افترقا.

أوثق الحطاب رزمة الأعـواد عل ظهره وقصد فـرن القرية. درج بخطوات ثقيلة ثابتة. حـتى إذا جاوز السور سمع صوتا عـاليا يدعوه للوقوف. ثبت بمكانه والتفت جهـة الصوت فرأى بوغابة رابضا وفي عيـنيه اشـتعـال قذر. لـم يصـدق عينيـه، فظل يتفـرس فيـه باندهاش ووجـوم، حـتى رآه ينهض من مكـانه ويدنو منه بهـدوء مـحـاولا أن يشمخ برأسـه إلى أعلى. كان وجهه مـرهقا وفي عينيه انتـفاخ سيء، فبدا كأنهُ كانَ في نوم استغرق طويلا.

قال بصوت فيه وقاحة وإصرار :

ـ أنا أدخل الغـابة ولن يدخلـها مـعي من شـاء. سـأحـرس كل أبوابها ولن يتمكن أحد منذ اليوم من دخولها.

تراجع الحطاب خطوات إلى الخلف وبدا كما لو أنه يريد أن يأخذ الطريق إلى قريته. فقفز بوغابة فجأة في خفة غير متوقعة وأمسكه من ذراعه قائلا :

ـ انزل الحطب وانصرف من هنا سالما..

قال الحطاب مستعطفا :

ـ إن قرية بأكملها تنتظر. وسوف يزداد جوعها إذا أنا لم أحمل لها الحطب. واعلم يا بوغابة أن الشتاء على الأبواب. ولاشك أن شتاء هذا العام سيكون باردا.

صرخ بوغابة في وجهه مهددا :

ـ من الأفضل لك أن تغادر هذا المكان. إنني حاقد على أمثالك من اللصوص.

استدار بحركة سريعة فكاد يسقط، غير أنه تماسك وقصد باب الغابة. تهالك محاولا دون ملل أن يشمخ برأسه. ترك الحطاب رزمة الأعواد ملقاة واتجه نحو القرية في سير حثيث. وحينما وصل وجد صاحب الفرن ينتظر الحطب وحوله رجال ونساء محتقنو الوجوه يتحدثون بأصوات غاضبة عن الخبز والحطب والدجال الأعور.. وأشياء أخرى..

عمّ الصمت. واتجهت الأبصار ناحية الحطاب وهو يدنو مفرغ اليدين، منتكس الرأس. وثب صاحب الفرن وثبة خفيفة وصرخ في وجه الحطاب :

ـ تأخرت عنا كثيراً وبقينا في انتظارك دون جدوى. ماذا حدث لك؟

رفع رأسه وقال آسفا :

ـ طال حواري مع بوغابة حتى ألهاني عن شؤوني.

وصدقت أننا سنبدأ اليوم حياة أخرى. ولكنه مخادع عريق.

وحكى له ما حدث في حماس محسوب. أصغى الجميع في اهتمام. وحين ختم، علت أصواتهم في احتجاج، فتداخلت في بعضها حتى صارت صعبة التمييز. غير أنها كانت حادّة، مستفزّة، وفيها عناد لا يُقاوم. شدّ صاحب الفرن على يد الحطاب بضغط محكم واتجها معا نحو الغابة. وقيل أنهما صارا بعد خطوات قليلة شخصا واحدا، فلم ير الناس غير الحطاب يمشي مندفعا، منتصبا في شموخ لا اعوجاج فيه.

وقيل أيضا إنها صورة الناس جميعا تتحرّك باغتياظ وفي ارتجاج متصل.

ولم يمرّ غير وقت قصير حتى سُمع أن بوغابة قال مرّة أخرى :

«خرجتك آلغابة يدخلك من بغا.. سبع ولاّ ضبع..»

الراعي واللصّ

الصباح رمادي لا جمال فيه، والقرية الصغيرة تغادر دون رغبة ليلها الطويل. تحرك السليماني بفراشه وسعل بصوت مبحوح أيقظ زوجته. وبسرعة دفعت عنها الغطاء وقامت لتهيء له الفطور. ثم قصدت صندوقها الخشبي، وأخرجت منه أوراقا مالية ملفوفة في قطعة ثوب قديمة أخذها وأصابعه ترتجف. دسها ببطء تحت جلبابه وواصل فطوره. ثم نهض من مكانه وتقدم نحو الباب صامتاً. قامته الطويلة بلا ظل، وامرأته وحدها تتبعه حافية دون حذر. وقف، وشخص ببصره نحو الطريق الممتد أمامه بلا نهاية. ثم حول عينيه، ونظر إلى زوجته قائلا :

ـ هذه المرّة أشعر بخوف لا عهد لي به.

تساءلت بصوت غير مسموع :

ـ هل تفكر في اللصوص؟

ردّ بسرعة :

ـ لا. الحاج دحمان وحده. إنه رجل سيء ولا أخلاق له.

قالت :

ـ إن ذلك كله سيرضيه. لا تقلق.

قال :

ـ أخاف أن تكون هذه هي الفرصة التي ينتظر. إن ما سمعت عنه جعلني أصدّق أنه لص حقيقي.

قالت :

ـ العن الشيطان وتوكل على الله.

قال باستهزاء :

ـ وهل هناك شيطان آخر غيره؟

صمتت. وبعد قليل تركها تفكر وأخذ الطريق بحزم.



أمام الباب يا سيدي، عليك أن تكون شخصا آخر. أكثر انضباطا ونضجا. انفض جلبابك من الغبار. اضرب حذاءك إلى الأرض. سو الطاقية فوق رأسك بعناية. ثم.. قف وانتظر حتى تنخفض نبضات قلبك. وبحركة هادئة، ارفع يدك اليمنى واضغط على الجريس. حسنا فعلت. الخادمة تسألك الآن من أنت؟ أجبها دون أن ترفع صوتك عاليا.قل لها :

«أنا الراعي العربي الأمين. سليل شعراء قبائل الحجاز. وإذا كان الوقت قد تغير اليوم فلا يخلو زمن من رجال..» آه! لم تفهم. إذن. قل لها ما تشاء :

ـ أنا السليماني بن احمد. أريد الحاج دحمان من فضلك.

أصمتْ وانصت بعناية :

ـ لايزال مولاي في سريره. انتظر بعيدا عن الباب حتى يفيق.
لابأس. أمسك أنفاسك، وعُد خطوات قليلة إلى الوراء. اقعد تحت تلك الشجرة وانتظر بصبرك المعهود إلى أن ينهض من نومه دون أن تنزع بصرك عن الباب..



انفتح الباب ببطء، وأطلّت الخادمة برأسها الصغير. هرع نحوها بسرعة وأدخلته غرفة الاستقبال. كان الحاج دحمان بانتظاره في فوقية بيضاء يرتج بداخلها لحمه كلما تحرّك. وجهه مغطى بلحية لا بهاء فيها. وحاجباه المرتفعان يتحركان بخفة رهيبة. ابتسم نصف ابتسامة ودعاه للجلوس. قعد على حافة الأريكة. صب له كأس شاي وسأله إن كان يريد خبزا. حرك رأسه بالإيجاب، فرفع الحاج بصره إلى السقف كأنما لم يسمعه. ثم أحناه ونظر في وجهه.. داكن، وفي وسطه عينان منطفئتان، ولكن فيهما حركة بعيدة لاتكاد تسمع. سأله عن «البهائم» فرفع رأسه قائلا :
ـ السوق نهار أمس كان حاميا. لقد حققتُ أرباحا لم أكن أتوقعها. بعت الحولي كله والثيران أيضا وعلينا أن ننتظر بعض الأيام حتى يبرد السوق ونبدل اليد.
قال الحاج :
ـ هذا ما كنت انتظر بالفعل. والآن نصفّي هذا الحساب.
ثم أضاف بعد لحظة صمت :
ـ ... وفيما بعد نقوم بما هو ملائم.
سحب من تحت جلبابه قطعة الثوب ومدها له. فضها بسرعة

أمام عينيه وأخذ يعد الأوراق. كرر العدّ. ولما انتهى، جمعها وأخفاها بجيبه مبتسما. ثم ضرب على كتف السليماني برفق وقال :

- برافو عليك!

وبعد لحظة صمت وجيزة أضاف :

- لكن، هل إذا طلبت منك أن تموت أمامي قبِلت؟

تساءل باندهاش :

- ولماذا يا حاج؟ هذا أمر غريب.

قال :

- لأنني لا أعرف ماذا نفعل الآن؟

- نفعل أي شيء نافع.

- تماما. وهو بدون شك ماذكرت أنت بنفسك قبل قليل. أما الآن فاذهب إلى دارك ودعني أعود لفراشي كي أنام.

قال بصوت فيه استعطاف واضح :

- قبل ذلك. اعطني نصيبي. أريد أن أصلح بيتي قبل مجيء الشتاء. وربّما...

قاطعه وهو ينظر إليه بعينين قاسيتين :

- ولهذا طلبت منك أن تموت لتخرج من هنا صامتا. أنا أعرف أن من يكرم العربي يتمرّد عليه. ألم تكن تأخذ مني كلما التقينا؟

- دراهم قليلة لا غير.

قال بلهجة آمرة :

- اسكت. ما فعلت معك إلا الخير، ولن أفعل معك الآن سواه. اسكت وانتظر قليلا..

غادر مكانه، وأمسك السليمـاني رأسه بين كفيه وأطرق يفكر. بعد قليل، عـاد وعلى فمه ابتسامـة واسعة أبانت عن أسنانه العـاجية البالغة الـتنسيق. كان يحمل سـروالا وقميصا باليـين، وبيده الأخرى قالب سكر وعلبة شاي. ألقى ما حمل بحجر السليماني وعاد لمكانه بحركة فيها زهو ورفعة وقال :

ـ احتفل هذا المساء، وأفرح على نحو لم تشهده في حياتك من قبل.

قال بارتباك :

ـ لكن..

ـ أسكت. لم أترك لك ما تقول.

ـ لكن..

ـ لكن ماذا؟ اسكت. ألست راضيا بكل هذا؟

ـ العن الشيطان يا حاج.

ـ لن ألعن شـيطانا ولا شيطانـة. فلا تـتعبني. ومن الأفـضل لك الآن أن تخرج من هنا سالما.

ـ أريد نصيبي كاملا. لقد تعبت عامين.

ـ أنت نكّار للخير.

ـ أبداً. احسب معي حـسابا صافيا. لقـد كنت أخشى دائما أن يحدث بيننا مثل هذا.

نهض من مكانه وصرخ :

ـ قم، وانسحب من أمامي بسرعة.

قـام ووقف يحدّق فـيه باسـتغـراب، غيـر أنه جرّه من جلبـابه، وحركهُ بين يديه بقـوة ودفعه خارج الباب. جـمد بمكانه في الشارع

وعيناه تتفحصّان الجدران المنقوشة بحقد بالغ. ثم تحرك نحو الباب وحاول أن يضغط على الجريس مرة أخرى. لكنه تراجع مرتعشا. نظر طويلا وهو يلهث لهاثا متقطعا. وبامتعاض تمخط وزرع مخاطه أمام الباب وهرع إلى داره حانقا..



والآن..

اكتم انفعالكَ وتابع طريقك بشكل يتلاءم مع وقارك. حتى إذا ما وصلت إلى دارك، ضع أمام زوجتك هدية الحاج، واحك لها بانسجام ما حدث من الطاق الطاق إلى السلام عليكم. وإن هي قالت آنئذ عليك أن تحمل منجلك بالفعل، ففكر طويلا، ورتّب أمورك على نحو ما تشاء..

فاكهة الأولياء

بحركة هادئة، أدرتُ وجهه نحوي وقلت له بصوت واثق :

- اسمع. الآن، طاحت وصبناها. فماذا نسميها؟

ابتسم ابتسامة صغيرة جدا، وطوى الجريدة بين يديه قائلا :

- سمها ما شئت.

ورفع رأسه إلى أعلى. نظر في السماء قليلا، ثم أحناه ببطء وضحك بصوت مكتوم وهو يخفي أسنانه المحرجة، وقال هازئا :

- إنها كارثة.

قلت مؤكدا :

- هي كارثة بالفعل. لكن ما رأيك أن نسميها قصة؟

صمت مفكرا دون أن ينزع عينيه عن وجهي. وبعد لحظة رفع صوته قائلا :

- هي قصة إذن. هاتها جميلة وندية..

لكن السر ليس في القصة، ولا في عوج بن عنق نفسه. كلّمني قبل أن نبدأ الطريق فقال، إنني عندما أفيق في الصباح أجد وجه الحياة قد تغير. وخرجت وراءه مفزوعا، مثقلا بحيرة فاحشة. فكنت

أسير بجانبه وكأنني في حلم أبيض، طويل، لا نهاية له. غير أنه وهو يحدثني بلهجته الواثقة أخذ يكبر في عيني شيئا فشيئا حتى صار تماما عوج بن عنق، فتخيلته يغرق يده في البحر، ويأخذ السمك ليشويه بعين الشمس ويطعم نفسه ويطعمني. وأخيرا قلت لنفسي : هذا خلاصي. وحده عوج نجا من الطوفان. غرق من في الفلك فيما الماء لم يجاوز ركبتيه، حتى صدق الناس أنه كاد فعلا أن يغرق السفينة وكدت أنا أيضا أن أصدق. بل صدقت. وتبعته بإيقاع ثابت محسوب. لم أكن أعرف أي طريق يوصلنا إلى مدينة الأولياء، فالتصقت به وسرت دون أن أسأله. كانت الطريق تُطوى تحت أقدامنا بسرعة وهو يهتف في كل لحظة : ها نحن قد اقتربنا. ولما وقفنا على مرتفع من الأرض أشار بيده قائلا : هي هذه مدينة الأولياء. اهتزّ صدري فجأة وانتابني إحساس أنني اكتشف شيئا مستحيلا. بدت لي المدينة كما ذكر اليافعي. روض شاسع جاثم بخضوع ممتع بين الأشجار والأنهار والفاكهة. نزلنا في اتجاه المدينة بخطوات متتالية فيها حرص وصرامة وثقة لا تقاوم. وعلى باب المدينة أوقفنا عسكري ضخم بإشارة آمرة من يده. ثم أخذ يدنو منا ببطء وعيناه على اتساعهما الرهيب لا تطرفان. جمدنا في مكاننا وهو يسألنا :

- إلى أين تقصدان؟

قلنا :

- إلى مدينة الأولياء.

قال :

- هذه المدينة لا يدخلها من هو غريب عنها.

قلنا :

ـ نحن فقراء الحال ونريد أن نقتات من فاكهتها.

فحصنا بنظرات متسائلة. بدا عليه أنه أراد أن يشتمنا ويمنعنا من الدخول غير أنه لم يفعل. فاستغرقه الصمت قليلا. ثم سألنا :

ـ من أين جئتما أيها الغريبان؟

قلنا :

ـ من أرض لا ترحم. الشمس فيها تطلع من كف شيطان وتغرب بكف شيطان آخر.

حرك رأسه حركة مستهزئة، وأفسح لنا الطريق. تنفست بقوة وسرت بجانب عوج كما لو أنني أنا أيضا ولي من أولياء الله، بهدوء، وتؤدة، وصمت صوفي عميق، حتى دخلنا المدينة، فتنقلت ببصري ولم أر شيئا مما حدّثني عنه. تساءلت مع نفسي إن كانت عيني قد خانتني. وقلت لعوج :

ـ أهذه هي مدينة الأولياء؟

فرد وعيناه تبرقان :

ـ ربما. بل هي هذه. لكن لا أعرف أين هي الفاكهة...

وبدأت أفقد ثقتي فيه. حتى تحوّل أمامي إلى خيال باهت، بارد، لا حرارة فيه. استدار بحركة خفيفة وتقدم من رجل طاعن في السن يتوسد عصا بطوله أو أكثر قليلا. كنت واجما وهو يسأله عن المدينة، فقال الرجل : هي هذه. لكنها ليست أحسن حالا مما كانت عليه. وتوسل إليه أن يرشدنا إلى مكان الفاكهة. غرق في الضحك فجأة، ثم بعد لحظة صرخ فينا بصوت عال :

ـ كان من جاع أكل. الفاكهة لم تتغير لكنها الآن مدفونة في أيد لا بياض فيها.

وتساءل بعد صمت وجيز :

ـ من أين جئتما؟

قلنا :

ـ من أرض لا ترحم. الشمس فيها تطلع من كف شيطان وتغرب بكف شيطان آخر.

قال في تحسر :

ـ لقد وضعت حواء ذرية كثيرة تعاطت الفساد. لكن لا يهم الآن. تعالوا معي عند امرأة تعلمت السحر من ملائكة بئر بأرض بابل. إن هي شاءت دلتكم على الطريق.

تبعناه بصمت. وفي مكان معزول عن المدينة، لا أثر فيه للحركة، وقف بنا أمام بيت له باب خشبي ضخم. وحولهُ نبات لا لون له ولا تفوح منه رائحة. نادى عليها، فجاء من داخل البيت صوت امرأة يسأل عمن يطلبها. رد الشيخ وهو يتفحصنا :

ـ غريبان من أرض لا ترحم يبحثان عن فاكهة الأولياء.

غاب الصوت، وبقينا نتبادلُ النظرات بخوف مكتوم. بعد قليل، انفتح الباب بهدوء، وظهرت لنا امرأة. رأسها مرتفع بجنوح، وجسمها ضخم يهتز اهتزاز قويا تحت لباسها المفتوح عن أعلى صدرها، ولها عينان ترتجان في وجه فائر لا نعومة فيه. تطلعت إلينا بفضول وتوجّس وهي تقف أمامنا في ثبات. انتفض عوج بجانبي بغتة، وأمسك بذراعي. التفت نحوه مذهولا فرأيته يتهاوى بصمت. وجهه فقدَ توهجه ولم يعد في عينيه شموخ البارحة. شفتاه وحدهما تنبضان بحركة بطيئة كما لو أنه يدعو لنفسه، أو لنا معا، بصوت لا يسمعه أحد. تراجعت المرأة للوراء خطوة، فيما الشيخ ثابت بمكانه يراقب بقلق. رفع عوج رأسه نحوي بصعوبة وقال :

ـ أنا لا أصدق عيني.

قلت له :

ـ هذه هي الكاهنة التي ستدلنا على الطريق إلى الفاكهة.

وطلبت منه أن يفتح عينيه ويترجّل. غير أنه أسبلهما باستسلام فلم أعد أرى نورهما. تجمد تحت قدمي كميّت حقيقي وجاءني صوته خافتا بعد لحظة :

ـ قيل إن الله أرسل إليها أسودا مثل الفيلة وذئابا كالإبل، ونسورا كالحمر فقتلوها. لكنها ماتزال حية هنا فتلك أول امرأة بغت في الأرض. ثم حجزت الفاكهة.

تقلص أمامي حتى صار شيئا لا يرى. وكدت أصدق أن الهدهد نقر الصرة فنزلت عليه من أعلى الجبل ومنعته من الحركة. وددت أن أتقمّص شخصية أخرى لأكون وليا حقيقيا ولم أقدر. فحدقت خائفا في المرأة وقلت لها :

ـ ها أنت ترين ابنك يموت أمامك من الجوع أو الألم أو الخوف. إلا أنك لم تفعلي شيئا من أجله..

قالت بلهجة حاسمة :

ـ اطلق رجليك على قدر فراشك وضع لجاما لفمك وإلاّ هزك الماء. فانظر لا غير. ودونما ندم أو حركة أو كلام.

ابتعدت عنّي حتى كادت تختفي وفتحت بابا صغيرا. ظهرت لي فجأة أشياء تهتز أمام عيني في حركة لا وصف لها. أشياء لينة. ناعمة. عكرة. فادحة... كانت كوهم حقيقي تخيلت أنه لا يمكن الوصول إليه. فأيقظت عوج. وفتح عينين مفزوعتين كما لو أنه كان في نوم سيء. قال لي أنه شم رائحة الفاكهة. وأخذ يتقلص تحت بصري من جديد. أمسكتهُ من يده ودعوته لأن يرجع معي. وقبل أن نترك المدينة أوقفنا العسكري. لم يسألنا عن شيء. بسرعة، خلع

لسانتا وعينينا، ودفعنا لا أعلم أينَ، فكنا نسير كأننا في المكان نفسه والساعة نفسها. وقلت لعوج وقد صار صغيرا جداً :

ـ لم يتغير شيء.

وصمت على جوعه، أو ألمه، أو خوفه. لكنه كان يتحرك حركات مذهلة لم أتوصل إلى فهمها. ولذلك كررت عليه سؤالي :

ـ ماذا نسميها؟

قال هذه المرة بصوت ممطوط ودون تردد :

ـ نسميها قصة..

وسميناها كذلك...

الجريمة والتواب

في منتصف النهار دقّت الساعة جريمة. وببطء، أخذ ينتشر في الدم دبيب غريب يشبه حركة النمل الصغير حين يمشي على الجسد. بعد ساعة تشوهت. انتفخ بطني وأحسست أنه امتص بسرعة هواء الأرض. بدأت أسعى بلا اتجاه. أسير بصعوبة. طلبت الهداية.. ومن لم يهد الله فلا هادي له. تحرّمتُ بسيدي بليوط ومولاي ادريس. الليلة يا أهل الله، أشعل مئة شمعة طويلة. أنزع الثوب، وأتمرّغ على التراب والحجر الأملس. ثم أجمع رأسي وأعورط في الأولياء والصالحين وسبعة رجال في كل مكان. وعندما ينطفئ الشمع الطويل، أستر أعضاء العيب، وأقيم حفلة كبيرة للتواب والمغفرة، تجتمع فيها الكائنات الصغيرة، والأخرى الأصغر، والأخرى التي تعذر عليها أن تكون.. وفي حفلنا نسمع الحكايات، ونرقص مع شيخات وادزم على أصابع اليد، أو جلدة الرأس، أو شعر البطن إذا اقتضى الحال...



أنا،

يا أهل الله،

حبيبي محامي،

ولي أصدقاء فقراء. وفي قبيلتنا، أعزكم الله، لا فرق بين رائحة الفقر ورائحة الكلام. اللسان ما فيه عظم، وإذا جاع منا أحد قال :

«آمن عشانا لله!»

وهذه خصلة نبيلة، إذ ما في الطعام حشمة، وكل الكلام من ذهب. أما من فضل الفضة كان الله في عونه. قبيلتنا لا ترحم. فيا أهل الله. حفلي حفلكم. ولا تأخذوا برأيي، إذ لا رأي لمن لا يطاع. فما أنا إلا عبد ضعيف، يأكل مني العفاريت والزجاج ضعف ما يأكل أولادي. الحكاية كانت بحجم قملة، ونحن في حضرة الأولياء والصالحين وسبعة رجال، ولما نطق حبيبي، يا أهل الله، صارت فضيحة وزيادة. ولذلك، دقت الساعة في منتصف النهار جريمة.

قال : مجرم!

والله ربّ العباد أعلم. فهل سرقت بيت المال؟ كان صديقي يسمع. ولما سألته ضحك بجنون. وظل يغرق شيئا فشيئا في الضحك أو في الجنون حتى حسبته مات. وحينما أقمت حفلة التواب والمغفرة رأيته يشرب النبيذ، ويرقص مع شيخات وادزم...



قال حبيبي، يا أهل الله،، واللسان ما فيه عظم، إن موكله كلفه بأن يبعث لي بإنذار.. ما الانذار؟ رفعت رأسي ونظرت لا أعرف

أين. خفت أن أسـأل فتغـرقوا أنتم أيضا فـي الضحك أو في الجنون. وأبقى وحدي.

وأنتم،

يا أهل الله،

شموع الحفل،

ودموع الحفل.. والحفل كلّه.

دقت الساعة في منتصف النهار. اتصل النهار، واتصل الكلام. فقال حبيبي إن موكله الغالي، وهو يبعث بالانذار، وفي هذا الإطار، يخبرني بأن رأسي ورؤوس الأولاد في خطر. تمتمت بفزع :

«آسيدي صالح!!»

ضـحك حـبـيبي ولم يمـت. ثم ركز عـينيـه في وجـهي وقـال، واللسان ما فيه عظم، إن موكله الغالي كلّفه، وهو إذ يبعث بالانذار، وفي هذا الإطار يخبرني بما يلي :

بسم الله،

يا فتاح، يا رزاق...

أولا : العمل الذي قمت به يشكل جريمة يعـاقب عليها القانون الجنائي بالحبس..

داخ رأسي ودرت أمـامـه مـرتين. ومـالي أخويـا؟ قال حـبـيـبي بغضب : ما خويا ما خوك. أنت مـجرم والصلاة على النبي. فإما أن تبيض المبلغ كـاملا، وفي أجل لا يتعـدّى دقيقـتين، أو أتقدم بشكاية ضدك أمام وكيل الملك، وتتحمل وحدك جميع العواقب. خفت، يا أهل الله، بـردت أطرافي، طلبت السـلامـة والهـداية، صـمـتّ على عذابي وأصغيت لحبيبي يضيف :

ثانيا : ولك الخـيار. الشيك بدون رصيـد. وهذا بالذات عدم

الوفاء. جريمة. الحبس وغرامة مالية لا تقل عن مبلغ الشيك والتعويضات اللازمة لموكلي الغالي، أنت مجرم.. آه! أنا؟ فما لي والشيك يا ربّ العباد. هذا القانون. والقانون ما فيه لعب. وضحك حبيبي. أما أنا فأحسست فجأة بسروالي يبتل. هل فعلتُها؟ داخ رأسي وهذه المرة لم أدر أمامه مرتين، تماسكت ودفنت وجهي في كفي..

قال :

ثالثا : ومازال في الخيار. الأداء أو الحبس. وحذرني إذا لم أفعل كبّرها. فهل أبيع أولادي؟ دبّر راسك، ولكن الأشياء التي بيننا صغيرة والحكاية بحجم قملة جائعة. دبّر راسك. دابا تندم. وغضب حبيبي. وما أقسى أن يغضب الحبيب يا أهل الله.

تنغص قلبي. أحسست أنني مجرم بالفعل. التمست منه يومين أو شهرين بدل دقيقتين. ضرب بيده على وجه المكتب. أو وجهي. وصهل حتى طارت النظارة عن عينيه وارتعد زجاج النافذة، وربما تحركت الجدران. أو حدث شيء ما في الشارع..

أما أنا،

يا أهل الله،

فاشك أني فعلت شيئا. وفي كل الأحوال أنا مطالب بالتعويضات . طلبت السلامة والهداية وأصغيت لحبيبي يقول :

رابعا : فات الأجل يا منحوس. خرجت على راسك. وللدقيقة ثمن غال في حياة حبيبي. فما بالكم بدقيقتين.

قلت له متوسلا :

ـ يومان أو شهران حفظك الله يا حبيبي يا محامي.. أبيع بعض أشياء البيت.

ابتسم قائلا :

ـ ماذا عندك يا منحوس؟

ـ عندي الله سبحانه. وأولاد كثيرون. وثلاجة قديمة ضربني ربّي فاشتريتها يوما. خذها بما فيها والعفوُ من عندك يا مولاي.

ـ وماذا فيها؟

ـ فيها شي شويه نعناع البرُوج.

طار حبيبي من فوق الكرسي. وما أجمل الحبيب عندما يطير. كان يتكلم. أما أنا.. مول المانة دّا مانتو.. إلا أنني سمعته في الأخير يزيد في الأجل دقيقة. وللدقيقة ثمن غال في حياة حبيبي. فما بالكم بثلاث؟



الحكاية، يا أهل الله، صغيرة. أصغر من بؤبؤ العين. وإذ نطق حبيبي صارت فضيحة وزيادة. قبيلتنا تحب الذهب. والذهب، يا أهل الله، فتنة. قال حبيبي حفظهُ الله، واللسان ما فيه عظم، خمس سنوات سجنا على أقل تقدير.. وأكبر تقدير يا سيدي؟ أعوام وأعوام وأعوام.. وخلال زمن وجيز دحرجتني الريح بين سيدي بليوط ومولاي ادريس. دخلت إلى الحبس. انتهت الأعوام والاعوام والاعوام.. ثم خرجت بلا قلب ولا كبد. وعلى الرغم من أن حلقي ناشف فقد كان صوتي يسمع. الموكل الغالي في عينيه شحم أصفر، ورغبة عاجلة في الحصول على فلوسه أو فلوسي.. وأنا أبحلق، شرف الله قدركم، في لحمه الكثير حين يقعد أو ينوض. ضمدت عظامي العوجاء ولحمي القليل. واشتقت لشرب زجاجة حمراء تبعد

عنّي صورة فيل ثقيل. جزاكم الله يا أصدقائي الفقراء وأغناكم بما تحبون. لكن الفيل... ضحكوا جميعا، وضحك كل من في الشارع. وفجأة، فاقت القبيلة على الجريمة. لا أريد،

يا أهل الله،

أن أقول إنكم مجرمون..

لكن،

حذار أن ينطق حبيبي...

أنا منكم. وحفلي حفلكم. لكن،

حبيبي محامي...

والآن..

مع شيخات وادزم. حكايات جرائمنا طويلة. وكي ننسى، هيا نرقص على أصابع اليد، أو جلدة الرأس، أو شعر البطن إذا اقتضى الحال..

* * * *

قال حبيبي يا أهل الله :

ـ ما لك؟ وجهك تبدل بسرعة..

قلت له :

ـ اطلُب الستر آ سيدي.. أنا بخوشة مسمومة..

تساءل حبيبي متعجبا :

ـ شنّو بخوشة؟

قلت موضحاً :

- بعوضة. كحيلة وزوينة. حتى هي عندها رجيلات ويديات وعوينات ورويس صغير بحال الفنيدة. اعطاها الله طاقة كبيرة على الإنجاب. لذلك عندي بخوش صغير تضج به داري أو داره.. ونحن معشر البخوش، يا حبيبي يا محامي، ضد تحديد النسل والاعتداء على الغير.. هل فكرتُم يوما في البخوش؟ إنه رائع يا حبيبي..

- ولكنه يقترف الجريمة.

قال حبيبي وضحك من قلبه الخالص. فعل كما تفعل امرأة سكرانة. وددت أن أضحك أنا كذلك لأفوج عن قلبي، لكنني خفت أن يغضب ويطالبني بالتعويضات اللازمة فورا. الاصدقاء الفقراء فكوا وحلتي وعليّ أن أفر بجلدي الذي نشف. تركته،

يا أهل الله،

يضحك حتى شبع. ثم توقف ونظر في وجهي قائلا بلهجة حادّة :

- ظننت أنك مثلي من بني آدم. لكن دابا عرفتك. ما كاين باس. نت غير بخوشة. خلاص. اسرح كما يسرح البخوش. وكل ما رزقك الله واقنع. واياك أن يغرك الشيطان. الحلال بيّن والحرام بيّن. والقانون لا يرحم. نت غير بخوشة. فلا تتعلق حيث تتفلق..

سكتّ على كيتي،

يا أهل الله،

والسكوت ما بعد الحجاج الثقفي حكمة. أما مع الشيخات، فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون. إذن، اربطوا الأحزمة، وهيا للشطح والردح قبل أن يطلع الفجر..

ولنا عودة للحكاية..

مكتبة الأدب المغربي

داء الذئب

الدجاجة والكأس

قال «با علي» وقد غطى وجهه شيء من الكدر :

ـ كفاك من الشراب. وهيا بنا إلى البيت فقد اشتدّ بي الجوع.

تراجعت الدجاجة خطوة إلى الخلف ونفشت جناحيها الكبيرين. تأملته قليلا، ثم اتسع منقارها لضحكة رعناء وقالت آمرة :

ـ املأ لي كأسي. وبعد ذلك نمضي إلى البيت.

دار بعينيه في أرجاء الحانة، فرأى السكارى يرنون إليه بوجوم. تنهّد، وملأ لها الكأس. تقدمت مترنحة وغطست منقارها وأخذت تحسو ببطء. ولما أتمت رفعت رأسها ودعته لمغادرة الحانة.

«دجاجة تعشي قبيلة بكاملها»

قال جاره، فاهتزّ بمقعده وبدا مرتاحا وهو يؤدي الثمن للبائع. نظر إليها وهي تسير بجانبه فرآها ناضجة وتابع خطاه باسما...

في البيت دارت دورتين، وقالت إنها في حاجة إلى كأس أخرى. تردد طويلا، ثم نهض، وسحب من تحت سريره زجاجة. فتحها وصبّ لها كأسا. كرعتها بسرعة، ومدت رأسها إلى أعلى

وابتسمت ابتسامة كبيرة. ثم صمتت لحظات. وعدّت بتأن من واحد إلى ثلاثة... ودون تردد قفزت في حركة خفيفة أمام المرآة، واستغرقت تتأمل صورتها. وبعد قليل، ضمت المرآة بين يديها، فكانت كما لو أنها تعانق نفسها في حلم لذيذ طويل.

هي الآن على نحو لم تتوقعه. سبحان مبدل الأحوال! مشعة الوجه. مسدولة الريش. مكحولة العينين. منقودة المنقار. ومرة أخرى رفعت المرآة أمام وجهها، ولبثت تتأمل نفسها في إعجاب. وهتفت فجأة بصوت مكتوم : أنا؟! ثم ضحكت ضحكة ممطوطة. واستلقت على ظهرها مغمضة العينين مسترخية الجناحين. وظلت لحظات طويلة في وضع يوحي بالظفر حتى أحست بيد تحركها ففتحت عينيها ورأت باعلي بقامته القصيرة، مدور الوجه، صغير العينين، في معطف دافئ الزرقة، وبين شفتيه نصف سيجارة. همّ بالكلام، فقاطعته قائلة :

ـ ها أنا مكتملة الأوصاف. اكتشفت سري وصرت بالفعل امرأة.

قال :

ـ أنت امرأة ونصف.

وهبت واقفة وهي تقول :

ـ هات كأسا أخرى.

وملأ كأسين. أعطاها واحدة ورفع الثانية إلى فمه. ثم قال لها :

ـ كفاك من الشراب. فقد اشتد بي الجوع.

لم تهتم بكلامه، ودعته إلى مزيد من الشراب، فقاسمها الكأس دون صبر. وفجأة، نهضت من مكانها واستقرت على أريكة واسعة.

تابع حركاتها في اندهاش. مفاجأة حقا. إنها امرأة حية. يافعة. فاتنة. طافحة بالبهاء والعافية. ابتسم ابتسامة صغيرة، وقال :

ـ أنت الآن أميرة الدجاج.

حنت رأسها. ثم رفعته قائلة :

ـ وكم أساوي الآن في نظرك؟

ردّ فيما يشبه الخجل :

ـ الحقيقة .. خمسون درهما غير كافية.

وضحكت قائلة :

ـ هل فعلا نلتُ اعجابك؟

أجاب بسرعة :

ـ كل الإعجاب. فأنا أسعد كثيراً حينما يجتمع فوق مائدتي الخمر والدجاج.

ومال نحوها بيده، فدفعتها برفق وقالت :

ـ أنا الآن سيدة كبيرة. وأستطيع أن أفتن آلاف الرجال. فكم تؤدي يا رجل؟

وملأ كأسين. وأخذ يتفحصها. رآها سيدة كاملة. أكبر مما تخيل. وظلت تكبر في عينيه وهو يحسو كأسه، وهي تحسو كأسها، حتى صارت فعلا امرأة ونصف. ثم امرأتين. ثم ثلاثاً. ثم تعددت الوجوه ساخنة صاحية، تغمرها ابتسامات واسعة. وأخذ يتضاءل ويدور ببصره في حيرة إذ سمع أصواتا متداخلة ترحب به قائلة : ق.ق.ق.قع.قع.قع...

وجعل يردد عينيه في الفراغ. حتى إذا ما تبيّن الصوت، ابتسم شاكرا، ودنا منها، وضمها إليه، ثم دفعته قائلة :

ـ هات كأسا أخرى.

اتسعت عيناه دهشة وهو يقول بصوت بطيء :

ـ كفاك من الشراب.

قالت ضاحكة :

ـ أما تزال جائعا؟

ردّ بوهن :

ـ إلى حدّ لا يطاق.

تساءلت في كبرياء وافر :

ـ فكم تؤدي يا رجل؟

قال :

ـ لك ما تطلبين.

وجعل يتفرس فيها بضعف. ثم أضاف :

ـ لك مالي وما تشائين غيره.

واسترخى أمامها، فجحظت عيناها، وامتدت إلى جيوبه وأخذت تفتش. أخرجت ما لديه من أوراق مالية وبسطتها تحت عينيها. ثم رفعت بصرها بعد لحظة وقالت :

ـ كل هذا لا يكفي.

قال بنصف انتباه :

ـ ماذا تريدين أيضا؟

قالت ضاحكة :

ـ أريد عينيك.

وافق بإيماءة من رأسه، فغرزت منقارها على طوله في محجريه

وبلعت عينيه بلذة. ثم سألته إن كان مازال يرى شيئا. ردّ بالإيجاب فاهتزت كالمذعورة وسألته عما يرى. فقال :

- أرى وجه الدجاجة.

ابتسمت في ارتياح، وقالت :

- اعطني أذنيك.

فوافق بحركة بطيئة من يده. وقطعت أذنيه، ثم بلعتهما بلذة وقالت :

- أمازلت تسمع؟

حرك رأسه بالإيجاب، واهتزت مرة أخرى كالمذعورة وهي تسأله عما يسمع. فقال : ق.ق.ق.قع.قع.قع..

وابتسمت قائلة :

- ما أطيبك!

ثم تساءلت:

- لكن هل هذا يكفي؟

فرد بصوت التقطته بصعوبة :

- لك ما تشائين.

واتسعت عيناها حتى أقصى حدودهما، وأخذ منقارها يرتجف بجنون. وأسلم نفسه إليها، وهوت بعد برهة على قفاه وغرزت فيه منقارها الطويل دون رحمة. انتفض فجأة بين يديها وصرخ صرخة عالية، وصلت إلى الفقيه العبدوني، فهرع جاريا إلى بيته. وقف مذهولا، وأخذ يراقب الدجاجة في وجوم تام. رآها تمص قفا الرجل بلهفة وتلذذ. ومن حين لآخر ترفع رأسها وترسل في الهواء أنفاسا ساخنة وتعود بمنقارها الحاد إلى قفاه وتمص، ورأس باعلي ثابت على صدرها. انقطعت أنفاسه وظل مسترخيا بين يديها إلى أن رفعت

رأسها عنه، فبدت متغيرة وهي تلهث لهاثا متقطعا، ثم نهضت من مكانها وقصدت المرآة. نظرت إلى وجهها فتملكها الاستغراب. الوجه الملطخ فقد لونه وصار له لون الدم والتراب. ازداد ضخامة وكاد يكون وجه وحش أسطوري. بلعت ريقها وأخذت تتجرد من ريشها. لون الدم والتراب. ظلت تتأمل نفسها وهي تهبط إلى الأرض ببطء، إلى أن استقامت وتراجعت إلى الوراء خطوات، وقفزت بقوة في اتجاه المرآة ونطحتها. تهشم الزجاج. وضحكت ضحكة ممطوطة. ثم قصدت باعلي فوجدته هامدا، منطفئ الوجه والعينين. حركته علّه يفيق فلم يتحرك. وضحكت مرة أخرى بصوت أرعن، وقالت تخاطبه :

ـ كم أنت طيب وجميل!

وسألته :

ـ هل بقي معك شيء آخر تمنحني إياه؟

لم يتكلم. فقالت بارتياح :

ـ أنت الآن كما أهوى. أنا سعيدة بك يا حبّي..

وسوته تحت منقارها وملأت الكأس. اهتز الفقيه العبدوني من الهلع ورفع صوته ناهرا. فالتفتت نحوه ونظرت فيه نظرة تحذير، فهرع إلى الشارع يعدو كالمعتوه. وحين ارتفع صوته ثانية يقول : هادجاجكم خرج من نفسه آثما... كان الليل قد غطى المدينة قاتما جافا. ولم ير الناظرون شيئا فلبثوا يتداولون الحكاية في انتظار صبح تأخر طلوعه.

حدث الآن..

أخذت كرسيا في ركن منزو، وطلبت فنجان قهوة. رشفت جرعتين أو ثلاثا، وأشعلت سيجارة. وأنا أدخن، أحسست فجأة بأصابعي ترتعش. وأخذ الارتعاش يتضاعف بسرعة حتى لم أعد قادرا على التحكم في السيجارة بيدي. التفت حولي لأرى إن كان الجالسون قد انتبهوا لحالي. رأيتهم يتحدثون. ويدخنون. ويرشفون قهوتهم. وبعضهم يتصفح جرائد الصباح في صمت.

وفتحت الجريدة..

أخذت أقرأ، فنسيت نفسي لحظات. عناوين مثيرة. قلبت عيني بسرعة، وكأني أتعجل الوصول إلى شيء أعلمه. ولم أكن في الواقع أبحث عن شيء محدد. وتوقف بصري عند عنوان غريب : «رجل يعضّ كلبا...». ضحكت من قلبي ضحكة طويلة، وتابعت الخبر بتأن. رجل خرج من بيته سالما، معافى، وعاد إليه بدون رأس. شهد سكان الحي أنه رجل سوي، راجح العقل، هادئ الطبع، شديد الانطواء، قليل الضحك، قليل الكلام، يشكو من آلام غامضة لم يكشف عن سرها أحد. ترك البيت صباحا، وأخذ طريقا طويلا إلى مكان ما. ثم عندما كان عائدا في المساء، اشتدّ جوعه، فصادف

كلبا ذا شأن، ناعم الشعر، صافي العينين، نظيف الوجه، يأخذ طعامه المعتاد، فدارت للرجل في الخواء وطلب منه ضيف اللّه. رفع الكلب رأسه ونظر فيه باستخفاف وقال له ناهرا :

«ابتعد عن ساحتي من فضلك...»

لم يعبأ الرجل الجائع بكلامه. وكرر الطلب. وظل يكرر ولعابه يسيل حتى بكى. لم يفهم الكلب شيئا واستمر يأخذ طعامه. علقت الجريدة باختصار : فقط لأنه كلب. وهذا شيء معروف. فلا ضيف الله ولا ضيف العبد. ولبث الرجل واقفا. ثم أخذ فجأة يتغير، حتى صار كائنا غريبا. ضخم الرأس شرس النظرات. ساخن الأنفاس. فاغر الفم. تخفف من أثوابه، ورفع يديه في الهواء، وصرخ في وجه الكلب :

«ضيف اللّه يا ابن الكلب..»

لم يتحرك من مكانه. اعتدل في وقفته، وعلا وجهه التجهم وهو يتأمله باستغراب، ثم قال له :

«ابتعد عن ساحتي من فضلك..»

ولم يطق الرجل صبرا، فانتفض وتهيأ لينقض عليه. اندهش الكلب وطلب منه أن يتمهل قليلا. فهدأ الرجل وأرسل أنفاسا حارة. لكن الكلب باغته، وصاح بأعلى صوته. قالت الجريدة أنه كلم أحدا. وشهد الحي أنه رأى غبارا أحمر وعمالقة زرقا تشبه كائنات أسطورية قادمة من كل مكان. فانتفض الرجل بقوة واندفع نحو الكلب. لكن الكلب نط من أمامه وأطلق ساقيه للغبار. انطلق الرجل يعدو خلفه حتى أمسك به وعضه بضراوة في كل مكان من جسده. قالت الجريدة ثلاثين عضة. وقال الحي ثلاثين عضة. وقال هو نفسه ثلاثين عضة.. حتى هوى على الأرض بدون أنفاس وقد

غطى شعره دم أسود. فأخذه العمالقة الزرق ومضوا به لتلقي العلاج. أما الرجل، فقد اختفى عن عيون الجميع وبدأ البحث عنه في كل مكان..

لم يثرني في أوصافه الكاشفة شيء، غير العلامة التي قيل أنها تشبه خطين متوازيين تماما، محفورين بعمق وسط جبهته. ففكرت طويلا. ثم صمتّ كالخائف، أو كالصبور، أو كالعارف، أو كالجاهل.. فلم أتحرك بمقعدي وقتا طويلا، حتى خلتني صنما باردا لا يعي شيئا والدنيا من حوله مقلوبة.. ثم عاودني الارتباك مرّة أخرى. تضاعفت نبضات قلبي. وتسارعت أنفاسي. وصعدت وجهي سخونة غريبة. فعرقت. نفخت في الهواء أنفاسا قوية ومسحت رؤوس أصابعي بثوب سروالي. تساءلت مع نفسي عما بي. هل هو عشاء البارحة؟ قد يكون. طعام سيء تناولته دون وعي. كنت جوعان والليل تأخر كثيرا. وما بين يدي غير هذا الطبق السيء. فأكلت. وأطنبت في الأكل. ثم مضيت إلى فراشي..

أطفأت سيجارتي ورشفت من كأسي جرعة طويلة. طلبت كوب ماء بارد. كرعت نصفه. وسمعت صوت فيروز يعلو هادئا، وديعا، في إيقاع طويل متصل. فأرهفت السمع ونسيت نفسي. حتى إذا انتهت، رفعت بصري ونظرت عبر زجاج المقهى الصقيل. رأيت على قرب مني سيارة يقودها رجل بالغ الامتلاء. توقف، وأخذ يرقب فتاتين تقطعان الطريق. أشار لهما بحركة من يده، فجاءت عنده إحداهما. قال لها شيئا لم أسمعه. ولكني، ربما، فهمت، لما رأيته يبتسم. وهي تبتسم. ثم وهو يفتح الباب. ثم وهي تركب باسمة. لم أهتم. حتى لكأني لم أر شيئا أو لكأني صنم بارد فعلا. اختفت السيارة من أمامي وأشعلت سيجارة. رشفت من كأسي جرعتين أو ثلاثا وعاودني الارتباك. وحاولت أن أتناساه

بالقراءة. ففتحت الجريدة مرة أخرى وأخذت أتطلع إلى العناوين. أثارتني الحادثة ثانية وأعدت قراءتها بمتعة ودون ملل. وحين أتممت، قررت مع نفسي أن أقترح على صديقي عندما يأتي أن يبدأ صباحه بقراءتها. غير أنه تأخر عني كثيرا ومللت أن أبقى إلى الآن.. ومنذ وقت طويل.. وقد يكون أطول مما أقول.. منفردا، محاصرا بالدخان والأصوات..

تضاعف ارتباكي، فلم أعد أحتمله وقد أبعدت من حسابي عشاء البارحة. وحين فكرت مرة أخرى في أمري، وجدت أني بحاجة إلى أن أشرب بيرة أو أكثر لأصون نفسي. لكن ماذا يقول صديقي إذا جاء ولم يجدني؟ وأنا حكيت له قبل أن نفترق عن كل شيء. لا يمكن أن ينسى، أو يتأخر، أو يخذلني. وهو يعرف أن الأمر يهمه، لذا لم يعترض على شيء. الأمر واضح. كل ما هناك، نلتقي يوم السبت صباحا نجلس مع بعضنا ، نطرطق الناب قليلا أو كثيراً. ثم نتعاون معا على تدبير العلف وما يلزم لتداول الوقت الطويل. لكنه تأخر، والارتباك يلازمني كأن شيئا خفيا يتهددني. شخصت ببصري عبر الزجاج، فرأيت فتاة مليحة، وخاطبت نفسي في إشفاق: ها هو طعامك يا مسكين! وأخذت أتأملها وهي تخطو بقدّها الموزون ووجهها المشع في شيء من الزهو. وظلت تدنو وأنا رابض بمكاني مثل قرد عجوز. حتى إذا كانت على قرب من الزجاج مالت بعينيها نحوي فالتقى بصرينا. وابتسمت لها ولم تعبأ بي. فكتمت أنفاسي. ولعنت نفسي..

تفو!!

وحطّت فوق خدي ذبابة ضخمة، فانقبض وجهي. خلتها تطلب مني ضيف اللّه. فامتدت نحوها يدي في حنان لا ريب فيه. لكنها طارت، وحلقت فوق الكأس قليلا، ثم اختفت بسرعة كما لو

أنها خافت مني. بصقت بالقرب من قدمي، ونهضت. تركت كأس القهوة قرب الجريدة على الطاولة وقصدت أقرب حانة. استقبلني البارمان بترحيب هائل وقدم لي بيرتين باردتين. أحستني الرجل المناسب في المكان المناسب. وشكرته. شربت. فأحسست بعد لحظات بالراحة تسري في عظامي. واتكأت على ظهري. وطلبت بيرتين أخريين. كرعتهما بسرعة. ثم قمت من مكاني وعدت إلى المقهى في خطى خفيفة. وفيما أنا أضع قدمي بالباب، رأيت صديقي قاعدا بقلب المقهى. صحت باسمه فرحا، وهرعت نحوه. جلست بجانبه ولمته على تأخره. غير أنه لم يتكلم. كان منقبض الملامح، غائر العينين، مغبر الشعر، معفّر الثياب، وفي شفتيه ارتعاش قليل كأنه يتمتم بكلام غير مسموع. ترددت في أن أسأله عما به. ولبثّ أتأمل وجهه. بدا لي في حالة أثارت استغرابي. فلم أطق صبرا وسألته. فدار بعينيه في أركان المقهى وهو يحرك رأسه حركات خفيفة. طال صمته وطالت حركاته وهو يمد أنفه الأفطس هنا وهناك ويتشمم برغبة وفضول. فنفذ صبري وهتفت به متسائلا :

«ماذا بك يا صديقي؟!»

التفت نحوي وابتسم ابتسامة صغيرة. ولم يزد على ذلك شيئا. أشفقت من حاله وطلبت إليه كوب ماء. تجرع الكأس بسرعة، وسألته إن كان مايزال في حاجة إلى مزيد من الماء. فردّ بصوت سمعته بصعوبة : لآه!! وصمت قليلا. ثم سألته :

«والآن.. ماذا نفعل؟»

أحسست وأنا أسأله، أنني أعلن بداية معركة لا رحمة فيها. غير أنه لم يتحرك من مكانه. ولم يقل كلمة، فضقت بصمته. وشعرت أن الأمر يهمني وحدي. ولا يهمه. حركته بيدي من كتفه

فالتفت نحـوي وقد اتسعت عيناه اتساعـا هائلا حتى خلته ينظر إلي مـقـلوب الرأس. فلزمت مكـاني، وانتظرت حـتى ضـاقت عـيناه، وجـاءني صـوته هازلا أشـبـه مـا يكون بصـوت كلب مـرهق يقـول برتابـة :«هَبْ.. هَبْ.. هَبْ..»

انـتـفضت مـذعـورا وأنا أرقب حـركة فـمـه وعينيه. تراجـعت بوجـهي إلى الخلف مستغـربا وحدقت فـيه بتـركيـز. تأملت الخطين المتوازيين فوق جبهته، فبدا لي ما بينهما عميقا. بعيدا. مغطى بظلام قاتم، لا نـهاية له. ووددت أن أصـرخ فلم يسعـفني لساني. وأخـذت أبلل فمي وأتهـيأ لأطلق صوتي. حاولت فلم أستطـع. والتفت حولي فـرأيت العـيـون ترقبنـا بدهشة وكـأننا لـسنا من هذه الأرض. بذلت جهدي لأنطق فخانني صـوتي، ولم يغادر حلقي سوى لهاث بطيء متقطع. واستغرقت أحدّق في وجـه صديقي حتى رأيته ينهض قائما ويدعوني لـلوقوف بنفس الصوت الـهازل الغريب، وبحـركة سـريعة من يده. حـاولت دون يأس أن أنطق، فلم أعـرف. ووجدت نفـسي أقول له أخيرا :

«هَبْ.. هَبْ.. هَبْ..»

وبجـد لم أعهـده فيـه، أمسك بيدي، وهرعنا مـعا إلى شـارع طويل تتداخل فيه الحركات والأصوات..

رباعية ميلانو

1 ـ التحول..

حتى منتصف نهار أمس، كانت حالتي عادية. لم يظهر علي أي شيء يثير الاستغراب. فلم أعرف سببا لكل ما حدث. هكذا، وبشكل فجائي، تداخلت أعضائي في بعضها، وتقوس ظهري إلى حدّ لم أستطع معه الوقوف على اثنين. ودرجت على أربع دون أن يسمع أحد حركاتي. وقفت أمام المرآة أتأمل نفسي. نصف جسدي سكن النصف الآخر. تحولت بغتة إلى كائن صغير. تغير في كل شيء. لون شعري. ولون عيني. وتفاصيل وجهي. ماعدا حجم رأسي. ولكنه بدا اللحظة ضخما. أردت أن أقول كلمة لنفسي. عجزت. تركت المرآة وقصدت بهو الدار زاحفا ببطء شديد. أختي الكبرى التي أقيم معها كانت نائمة. قعدت على أربع لحظات طويلة. وجهي مدفون بين كفي، وعيناي تتأملان ساعة حائطية معطلة، جاثمة في كسل آثم تحت ضوء خافت. تنهدت بعمق، وفكرت أن أوقظ أختي لترى ما حدث. وأنا أفكر رأيت ابنها يفتح باب الغرفة. اندهش حين رآني، وجمد بمكانه يتأملني. ثم دبّ نحوي في خطوات ثقيلة مترددة وسألني عما بي. خلته يكتشف

كائنا غريبا. فلم أجبه. أنا نفسي لم أفهم ما حدث. ثم فجأة، وأنا حاني الرأس، سمعته يضحك ضحكة مكتومة. رفعت نحوه بصري، ولم أسأله عن شيء. بعد لحظة، تركني وقصد المرحاض. آنئذ تحركت نحو الباب بخفة لم أعهدها في نفسي وفتحت بسرعة. ثم غادرت الدار دون ضجيج وأنا أتساءل : ماذا ستقول «البتول» حينما تراني؟

2 ـ الطريق..

هيا بي إلى ميلانو! هتفت بصوت غير مسموع وأخذت الطريق. هناك سألتقي بصديق قديم. لن أحكي له شيئا عن نفسي. فقط سأقول له :

ـ انظر يا صديقي منصور.

وأتوقف قليلا. ثم أسأله :

ـ كيف أبدو لك الآن؟

ودون شكّ سيردّ علي بصدقه المعهود :

ـ أنت فعلا كائن جديد.

وله أن يتأملني. ويستغرب. ويضحك. ويبكي.. له أن يفعل ما يشاء. وإذا أراد أن يحكي لي شيئا فليفعل. وكل هذا لا يهمّ. المهم بالنسبة لي أن أصل إلى ميلانو والتقي بالبتول. وأنا أحفظ الطريق إليها. وأعرف بابها الواسع الطويل. اذكر جيدا، عندما وقفت، أبي وأنا، في مدخل ميلانو. انشغل هو بالحديث مع رجل لا أعرفه، ووقفت أنا (حينذاك على اثنين) قرب جدار ضخم مغروس في التراب ذي رأس مقوس كظهر جمل. لم أبال بالحديث الذي كان يدور قربي بلكنة لم أعهدها. وطفقت أتأمل الجدار بعينين مبهورتين والرقم السميك المرسوم عليه بلون فاقع

الحمـرة، إلى أن ودّع أبـي الرجـل وقـصـدنـي ضـاحـكـا وهـو يـسـأل :

ـ هل تأخرت عنك؟

لم أرد عليـه. كنت مشـغـولا بالتفكيـر. حـسب أني غضـبت، فانحنى علي وقبل وجهي، وقال :

ـ لا تغـضـب. عندمـا نصـل إلى مـيـلانـو سـأشـتـري لـك رمّانـة.

وحكايتي مع الرمان طويلة وعـريضة. لعله الفاكـهة الأولى التي نطقت باسمـها. ثم أحـببتـها. كنت أفصل الحـبيـبات الصغـيرة عن القشرة شيئا فشيئا وبحذر شديد. يأخذ مني ذلك وقتا طويلا، لكنني لا أعبأ. كل همي أن أجمع الحب الأحـمر في آنية من طين وأحرص على ألا أضيـع حبّة واحدة. وأبي يقـول : «إذا أكلت رمانة بكاملـها ولم تضيّع حبّة منها دخلت الجنة..». وأنا أعشق الجنة التي طرد منها أبونا آدم وأمنا حـواء. وكان أبي يفـهم، فيرقبني من تحت حاجـبيـه بعينين صـافيتين وعلى فمـه نصف ابتسامـة. وبين حين وآخر يمد يده نحوي، ويأخذ حبة ويلقيها بفمي ويقول ضاحكا : كُلْ.. يا طائري الحرّ! واضغط على الحبة بين أسناني وأمص بلذة ماءها الحلو. وأوسّع عيني وأقـول بصوت عال : مـا ألذّ الرمان! ويعـرف أبي أني صادق. فلا ينسـى أن يحمل لي معـه رمانة في المسـاء. والحكاية طويلة. على كل حـال.. فـهذا مـا حـدثني عنه ونحن نـركـب دراجتـه في اتجـاه مـيلانو. غمـرتني فرحـة هائلة وقفـزت أمامـه، أمسكت وسط المقود بإحكام وثقـة، وسرنا، وهو يغنـي لي أغنية شـعبية هادئة لا صـخـب فـيــهـا. ومن حين لآخـر اسـأله أن يسـمـح لـي بقـيـادة الدراجـة، فيجيبـني :

ـ حين تكبر وتطول رجلاك، ستركب الدراجة وتسافر إلى ميلانو بمفردك.

وأنا الآن أسافر بدون دراجة. على أربع. قطعت الطريق بخفة كما لو أن شوقي إلى البتول هو الذي كان يحملني. حتى وصلت إلى مدخل المدينة. كان أبي قد قال لي حينما ألححت عليه :

ـ هذه العلامة يا طائري الحرّ لا تعني شيئا. سوى هذه المنطقة. أي باب ميلانو. ونحن الآن وسط هذه الحقول في مأمن من قطاع الطرق. أربعون. لا أعرف ماذا تعني. ولكنها كما ترى.. هي باب ميلانو.

بصق على الأرض ولم أفهم لماذا. ولعن قليلا. ثم أضاف :

ـ شاي الله ميلانو. هذا الجدار يا بني غرسه النصارى هنا وكتبوا عليه هذا الرقم الأحمر الغليظ وبقي هنا منذ ذلك الوقت..

واستمر يدفع دراجته بهمة وصبر. وها هي ميلانو. ابتسمت ورحت أنقل عيني هنا وهناك. نسيت أشياء كثيرة. ولكنني رأيت ميلانو. دور ساكنة. منخفضة. متباعدة. من تراب تتداخل فيه الحمرة بالبياض. وأزقة طويلة إلا من أشجار محدودة الامتداد. وطيور حائرة تمضي بعيدا، ثم تعود وتندس بين الأغصان. ركبني ولع في أن أركض، فركضت على اثنين حتى حفظت الأزقة والساحات ووجوه الأطفال والسماء والطيور والأشجار. وأحببت ميلانو.. آه عليك يا ميلانو.. يا بنت الكلب! فقد عرفت يوما ماذا يعني هذا الرقم الأحمر السميك الذي حيّرني، حينما عاد أبي ذات مساء ضاحكا ملء فمه وهمس في أذني :

ـ الآن. عرفت. أربعون معناها خفف من السرعة..

واستلقى على ظهره لحظات. ثم أردف :

ـ حين تركب الدراجة يا طائري الحر، وتصل إلى هذه العلامة، سرْ بالقاعدة..

ولبث مدهوشا لوقت طويل، ثم أومأت برأسي وقلت له :

ـ سأفعل..

ولم أجد صعوبة في أن أخفف من سرعتي. خففت إلى الحد الأقصى. غير أنني وأنا أتقدم في اتجاه ميلانو هالني مارأيت. سيارات ودراجات وطيور تقطع الطريق بسرعة هائلة. استغربت ولم أقدر على مجاراتها. كان الإعياء قد نال مني. فتابعت طريقي بصبر. كنت مهموما. أفكر في البتول وأتساءل عما ستقول حينما تراني. قبل يومين، عندما دخلت الدار وجدت رسالتها بانتظاري، وهي الرسالة الثالثة التي تلقيت منها خلال شهر واحد. وفي هذه الرسائل كلها تدعوني لزيارة ميلانو. قالت في الرسالة الأخيرة :

«... لا أطلب منك يا عزيزي جوابا مكتوبا. أريدك أن تحضر أنت بنفسك. لقد تعبت من بعدك. وتعبت من صمتك. وتعبت من عنادك. كل هذه السنوات مرّت وأنت ماتزال على رأيك. امسح من ذاكرتك صور الماضي وتعال عندي هنا إلى ميلانو. لماذا تصرّ على البقاء بعيدا؟ تعال لتحيا هنا حياة جديدة. فقد هيأت لك ما أنت بحاجة إليه. ميلانو الآن جنة. وأنا صرت أميرة. فماذا تنتظر؟».

قالت أشياء أخرى كثيرة. قرأتها بتأن. فكرت فيها طويلا. ثم قررت أن أدخل ميلانو. لم أستشر أحدا. ولم أر عيبا في لقاء البتول. هي الآن أميرة كما قالت. وهي نفسها ترغب في لقائي. فماذا يمنع من زيارتها؟ كنت فقط أخشى رؤية امرأة معروفة كنا ندعوها «الغولة» استشعرت الرعب وأنا أجتاز باب المدينة. فلكي أقف أمامها متماسكا من غير اضطراب يلزمني دم أيوب. إن أنا رأيتها، وهي

تفتح فمها الواسع، وشممت الرائحة التي تفوح منه، وسمعت كلامها السيء. فبالإمكان أن أتهاوى أمامها ويغمى علي. كان رعبي يتضاعف وأنا أتقدم نحو ميلانو. آه عليك يا ميلانو.. يا بنت الكلب! كنت أسير بخطوات متثاقلة، والسيارات تقطع الطريق دون مهل، وأتابعها ببصري، وأحاول أن أتعرف على الأرقام والحروف الصغيرة المرقونة خلفها، فلا أتبين منها الا اسم المدينة. ميلانو. في شكل تلتقطه عيني بوضوح غير تام. وأخاطب نفسي : صحيح أنني الآن أدخل أرضا أخرى. لعلها الجنة التي وعدتني بها البتول. حافظت على تماسكي وأنا أندفع باتجاه المدينة. وفجأة وقفت عند قدمي سيارة مصقولة بداخلها رجلان وامرأة في المقعد الخلفي متكئة على كتف السائق وهو ممسك بالمقود. كانت عيونهم متقدة. سألني السائق في شيء من الاهتمام :

- إلى أين يا رجل ؟

رفعت رأسي نحوه وقلت :

- إلى ميلانو.

قالت المرأة بصوت آسف :

- مسكين. إنه يمشي على أربع من شدة التعب. احمله يا ولد الناس إلى وسط المدينة.

وتساءل الرجل الجالس جنب السائق :

- من أين أتيت؟

لم أعرف ماذا أجيب. فكرت برهة. نظرت يمينا وشمالا، وقلت بغباء :

- من ميلانو.

وضحك الثلاثة برعونة. تراجعت إلى الوراء وأخذت أتفرس

في وجوههم. كانت طافحة بنشوة لا معنى لها. وبعد تردد قصير قلت له بصوت هادئ:

- لا تتعب نفسك. لم يبق لي سوى مسافة قليلة وأصل.

ونطت السيارة في غضب ولامبالاة. ملأت رئتي بدخانها اللزج واختفت في طريق مغطى بأشجار طويلة..

3 - ميلانو ترحب بزيارتكم..

تساءلت مع نفسي في كثير من الاستغراب إن كنت ضيعت الطريق إلي ميلانو. حافظت على توازني، ورتبت أنفاسي بعناية، وتقدمت على أربع. حاولت أن أمشي على اثنين ولم أقدر. رأيت أشياء جديدة فعلا. ليست جنة تماما كما قالت البتول. ولكن، دور عالية واحدة فوق أخرى. سيارات لامعة واحدة تقفز خلف أخرى. جماعات نساء مكحلات جماعة تتبع أخرى. وسرت طويلا وراء هذا كله. وأنا أبحلق مبهورا. سراويل، جاكتات، أحذية، ساعات، نظارات، وهذا كله في ميلانو. آه عليك يا ميلانو.. يا بنت الكلب!

تشوقت إلى لقاء البتول. ولكني فضلت أولا أن أرى صديقي منصور. نسيت المقهى الذي يرتاده. درت النهار كله. خجلت أن أسأل أحدا. ولما اختفت الشمس، التجأت نحو حائط طويل في مكان يبعد قليلا عن الأضواء. شممت رائحة البول فتقززت وسرت بمحاذاة الجدران أتشمم.. وجدت مكانا لاتوجد به رائحة، قعدت أحسب الليل وأنتظر طلوع النهار.

في الصباح، أفقت على وقع أقدام قرب رأسي. وجدت قطا صغيرا ينام في حجري. لم أعرف في أي ساعة من الليل التجأ إلي. دون شك أحس بالدفء وقضى ليله في حجري. أيقظته، ففتح عينيه ونظر إلي كما ينظر بنو آدم، ثم أغلقهما بهدوء. لعله يرغب

في مـزيد من النوم. تركـته ممددا على الأرض. تمامـا كـما يفـعل بنو آدم. اسـتغـربت. وأخـذت الطريق. كنت أسـيـر لا أعلم أين. بعض الدور طالت حتى حجبت السماء، والسيارات غطت الأرصفة، وأنا أمـر بصعـوبة وحـذر. كنت أتنقل مـثل حيـوان أبله. حـتى سمـعت خلفي ضحكة ممطوطة، فـوقفت والتفت مذعـورا. نظرت في الوجه الذي يتـبـعني وأخـذت فـجـأة أرتعـد. كدت أهـوي. ولكني بذلت جهـدي كي أبقى واقفـا. الغولة.. هاهي بعينيـها الشـرستين، وفمـها الكبير، ورأسها الضخم. ضحكت حتى لاحت لي أنيابها السيئة. ثم اقتربت مني وقالت باستخفاف :

ـ أهذا أنت.. في ميلانو؟!

قلت لاهثا :

ـ كما ترين. أنا. ماذا تريدين مني؟

حنيت رأسي. ثم رفعته على صوتها تقول :

ـ ماذا جـاء بك بعد هذه الغـيبة الطويلة؟ كـان عليك ألاّ تأتي. لقد وصلتني أخـبارك وقيل لي أنك صرت قردا. فـهل تعرف حكاية القرد؟

حـركتُ رأسي بالنفي، بينـا تراجعـت الغولـة خطوة إلى الخلف وأخذت تتـأملني بنظرة هازئة. لـم تتوقف عن الضـحك وأنا أتساءل مع نفسي كيف أبدو لها في هذه اللحظة. هل فعلا تحولت إلى قرد؟ قالت بعد برهة :

ـ ارفع رأسك وانظر إلـى مـيـلانو. وكن على يقـين أيهـا القـرد اللعين أنه لـم يعـد لك مكان هنا. ومن الأفضل لـك أن تغادر ميـلانو نحـو الاحـراش. أمـثـالك غــادروا. ومن بقي منهم هنا فـإنـه ينتظر ساعته.

صمتت قليلا. ثم تساءلت :

ـ كيف لا تعرف حكاية القرد؟

وأضافت :

ـ ها أنت ترى حياتك. إنه إنسان مثلك في الأصل. سخر من الطعام فلعب به. لكن الله عاقبه فمسخه وتحول إلى قرد. أنت أيضا صرت قردا. من أسوأ القرود. وهذا هو مصير كل من لم يحمد الله. قل لي.. ماذا جاء بك إلى ميلانو.. هل تبحث عن عمل؟ عن طعام؟ عماذا؟ تكلم..

قلت بصوت مضطرب :

ـ من فضلك. دعيني وشأني. فأنا أبحث عن مكان كنت أعرفه هنا لأقيم به أياما قليلة وأعود من حيث جئت.

قالت ساخرة :

ـ حينما يتحولُ الإنسان إلى قرد جائع يصير بدون مكان. لهذا عليك أن تغادر ميلانو حالا. وإذا لم تفعل فضحتك..

ابتعدت عنها قليلا. تبعتني. رجوتها أن تخلي سبيلي. لم تقبل. اجتمع حولنا نساء ورجال وأطفال صغار، وأخذوا يراقبون بفضول زائد. تقدم رجل مسن وسألها عما تريد مني. نهرته فتراجع خائبا. صمت الجميع. كنت ألهث وأفكر بلا أمل في الهروب. كانت حازمة وحريصة على ألا أفلت منها. لم تكف عن شتمي وأنا هامد تحت عينيها أدور برأسي باحثا عن حماية. لم ترحمني. لم يتقدم أحد لانقاذي. ظل الجميع يتفرجون ويتهامسون فيما بينهم. سمعت صوت امرأة واقفة قربي تقول لجارتها :

ـ هذا المخلوق ليس قردا كما تقول هذه السيدة. إنه حمار. ولربما كان إنسانا وتحول إلى حمار.

لم تجبها جارتها. فأضافت متسائلة :

ـ مالك صامتة؟ تتأملينه هكذا.. هل أعجبك؟

ردّت بحزن :

ـ أظن أنني عرفت هذا الرجل.

ـ رجل؟

ـ نعم. لا تشكي في ذلك..

اقتربت من أذنها وهمست لها كلاما لم أسمعه. ظلت عيناي ثابتتين على وجه المرأة وعيناها ثابتتين على وجهي. كلانا ينظر إلى الآخر في صمت واستغراق. بعد لحظات.، أزاحت اللثام عن وجهها وتقدمت مني بجرأة. رفعتْ يدي نحو كتفها وطلبت مني أن أمسكها. فعلت. ووقفت على اثنين واتكأت على كتفها المتين. وحين أردنا أن نتحرك اعترضت الغولة طريقنا وقالت للمرأة :

ـ إنه حيوان سيء لا يستحقّ الرحمة.

نهرتها المرأة قائلة :

ـ اذهبي لشغلك يا سافلة. لو أن أمه كانت ماتزال حية لفعلت فيك العجب وفرجت فيك سكان ميلانو.

آه.. قربت وجهي من وجه المرأة وقبلته قبلة طويلة. سارت بي قليلا. بتؤدة وهدوء. حتى ابتعدنا عن الجماعة، وفاجأتني قائلة :

ـ أين غبت كل هذه المدّة يا بنسعيد. أنا كنت جارتك أيام كانت ميلانو مساكن صغيرة. اذكر والدك رحمه الله حين كان يحمل لك الرمان ويدعوك الطائر الحر. أنا طامو.. هل تذكرت؟

انتفضت وأنا متكئ على كتفها. كدتِ أزعق وأضمها إلى صدري. سرَت في جسدي رعشة سريعة وأحسست بدمي يجري ساخنا في عروقي. واحسستني قادرا على الوقوف على اثنين. نظرت

إلى المرأة وقد امتلأت عيناها فرحة وهنأتني. ثم شدت يدي على كتفها وسارت بي في خطى سريعة. ونحن في الطريق سألتها :

- إلى أين تتجهين بي يا مّي طامو؟

ردت ضاحكة :

- حيثما تريد يا طائري الحر. وإذا أردت أن ترى مكانك الأول. فهو هناك. حيث طيور أخرى حرة وصغيرة ونقية. منها من يطير ومنها من يتعلم الطيران ومنها مكسور الجناح.. ولكنها جميعا حرة..

ومرة أخرى جذبت وجهها وقبلته قبلة طويلة. ربما ضايقتها. ولكنني لم أعبأ. كان في وجهها سخونة عميقة. قلت لها إنني قدمت إلى ميلانو لألقى امرأة تدعى البتول. اهتزت فجأة ونظرت في وجهي بانزعاج. لم تقل كلمة. تابعت أنني أريد أيضا أن أرى صديقا قديما يدعى منصور. ضحكت بصوت عال ولم أفهم لماذا. لم أسألها عن شيء وتابعت السير بجانبها صامتا. سرنا طويلا. قطعنا شارعاً بدا لي حين دخلته أنه بدون نهاية. وكنت واهما. ولما لوينا على اليسار، سرنا قليلا، فوجدت نفسي مثل الطائر الحر وكأن ميلانو لم تكن. فضاء شاسع لا نهاية لشساعته. وسماء صافية الزرقة، دافئة، بعيدة، ولكنها تملأ العين. هزتني رغبة جامحة في أن أحلق، غير أن يدي كانت مدفونة بكف مّي طامو ونحن ننزل ممرا حفره المشي في منحدر طويل باتجاه دور منخفضة متكئة على بعضها. حتى إذا ما وصلنا اهتزت أطرافي وصرخت بصوت عال :

- ها هو بيت البتول.

قالت باسمة :

ـ هذا بيتـها القـديم. ومنذ وقت طويل تركته وأقـامت في بيتـها الجديد بقلب ميلانو.

أمسكت ذراعي بيدها والتفتتْ نحـو ميلانو، والتفت أنا أيضا، وانصت إليها تقول بصوت هادئ :

ـ انظر.

ونظرت حيث أشارت ورأيت ميلانو. ثم أضافت :

ـ وسط تلك البيوت يوجد بيت البتول.

وتساءلت :

ـ أكنت تحبها؟

لم أقل كلمة، وتساءلت مرة أخرى :

ـ لماذا تريدها؟

وأخـذت أحكي لها. كنا نسيـر وأنا أحكي بصوت مـهمـوس وهي تنصت والطيـور تحلق فـوق رأسي. قطعنا أزقة صـغيرة ملتـوية متربة ودخلنا بيتها. تماما كما عرفته من سنين. بنفس الطلاء والصور التي تزين الجدران. لم يتغير فيه شيء. هكذا تركته. أحسستني طفلا صغـيرا حـاملا بين يديه رمانة وهي تحـضنه وتقبله وتجلـسه في مكان لائق به. قعدت قرب سـريرها الخشبي القديم وواصلت الحكاية. ولما أتممت تنهـدت، ونهـضت من مكـانهـا دون كلمـة. بـعـد لحظات قصيرة أحضرت الشاي وتربعت أمامي وقالت لي بلهجة آسفة :

ـ لست الوحـيـد يا ولدي الذي خـانتك الأيام. وأنا أذكـر حين كان أبوك يناديك الطائر الحر وأفهم لماذا...

قاطعتها فجأة، وقد خـشيت أن تسترسل في الحديث عن أشياء لا أرغب فيـها الآن. أنا أذكر كل شيء. حتى الممر الذي يؤدي إلى بيتنا القديم. ابتسمتْ حين أشـرت لها بسبابتي أن تسكت، فسكتت

وأصغت إلي بانتباه كما هي عادتها من سنين طويلة. قلت لها :

ـ لا داعي لتذكر ما فات. فما فات لن يموت. لكن ما يهمني الآن هو أن التقي بالبتول. فمن أجلها أخذت الطريق إلى ميلانو. وعلى أربع. فعلا، مثل حيوان سيء..

علت فمها ابتسامة عريضة وتمكنت من رؤية الفجوات التي ملأته. لم تكن هكذا. إلاّ أنها ماتزال عطرة. مهتمة بنفسها إلى الحد الذي كان يحير نساء الحي. قيل عنها الكثير ولم تعبأ بشيء، فحافظت على كبريائها واعتزازها الواثق بنفسها. حتى بيتها الصغير ظل إلى الآن نظيفا، وأثاثه القليل مرتب بعناية. اهتزت أمامي بجسدها الممتلئ نبضا وعافية وأخذت تحرك رأسها يمنة ويسرة. ثم تنهدت تنهدة طويلة وقالت :

ـ اسمع يا طائري الحر. أنت مثل ابني. وإن كنت لا أكبرك كثيرا كما تعلم. البتول صارت امرأة أخرى. إنها اليوم سيدة ميلانو. أو قل إنها هي نفسها ميلانو. وإذا قالت لك أنها أميرة، فهي أميرة بالفعل. أميرة حقيقية. قد صارت تملك بيتا من أغنى وأعلى وأوسع البيوت. وهو شبيه بقصر كما يحكون. وأنا أنصحك بألاّ تلتقي معها..

سمعت ما قالت ولكنني لم أفهم شيئا. وأخذت أدور ببصري كالمعتوه. أحسست فجأة بالغرفة التي تجمعنا ضيقة مظلمة. وأردت أن أتكلم فلم يسعفني لساني. وكنت أردد في خيالي : آه عليك يا ميلانو.. يا بنت الكلب! وبصعوبة تساءلت :

ـ أصحيح ما تقولين؟

واقسمت مي طامو. وأكدت لي. وكررت أنه من الأفضل أن أغادر. بدا لي كل شيء تافها إلى حدّ لا يطاق. ولعنت نفسي. ثم

سألتها بأسى عما جعل البتول تكتب لي وتطلب مني الحضور إلى ميلانو. وتقول إن ميلانو جنة. ردّت ضاحكة :

ـ ميلانو جنة لمن اشتراها. ويقال الله يجعل الغفلة ما بين البايع والشاري..

قلت لها :

ـ انت تعرفين أنني أحب ميلانو.

قالت بسرعة :

ـ وماذا تريد أن تفعل الآن بهذا الحب؟ البتول تجمع أمثالك ليكونوا خدما في بيتها. وقد استدرجت إليها الكثير. وما أعرف أنا، كما أمك وأبوك، هو أن يبقى الطائر الحرّ حرّا.

قالت وأخذت تتفرس في وجهي ثم أضافت :

ـ إذا جاء مثلا ضيوف من مكان ما استقبلتهم أنت ورافقتهم إلى إحدى غرفها حيث تكون جالسة وأمامها مائدة.. وتقول لها ماذا يريدون. هل فهمت؟ أو إذا أرادت أن تبعث برسالة لأحد فإنها تملي عليك كلامها وأنت تكتبه. هل فهمت؟ أو إذا تلقت رسالة من أحد فإنها تسمع وأنت تقرأ عليها، وأشياء أخرى كهذه.. فهمت الآن؟ هذه هي البتول..

قلت مبتسما :

ـ عرفت. ولكنني لم أفهم.

حركت رأسها بخفة وقالت :

ـ خذ راحتك. البيت بيتك. وأنا سأقوم لأعد لك طعاما.

صمت واستغرقني التفكير. أحسست بنفسي أتقلص من جديد. أعود ببطء إلى حالتي الرهيبة. ركبتني دوخة هائلة استشعرت معها القيء. تماسكت وحاولت أن أهدئ أنفاسي

المتسارعة. لاحظت مي طامو ارتباكي وسألتني عما بي. قلت لها :

ـ اعفي نفسك من إعداد العشاء. سأخرج حالا للقاء منصور أعز أصدقائي. إنه سرّ ميلانو. وهذه فرصة علي ألا أضيعها.

قالت متنهدة :

ـ كما ترى يا ولدي. لكن احذر أن تخدعك نفسك فتزور البتول. إنها تريدك لتكون عبدا خادما وهذه هي رسالتها الحقيقية. أما سر ميلانو، فابحث عنه في مقهى افريقيا. وحاول أن تضبط أعصابك.

4 ـ التيه..

كانت الشمس قد اختفت ولم أشعر أنني أمضيت نصف نهار في بيت مي طامو. رائحتها العطرة لصقت بثوبي حين أفردت ذراعيها وضمتني بقوة إلى صدرها. ورجلاي ترتجفان، وبرودة لا عهد لي بها تسري فيهما. تركتها آسفا وسرت. السبات أخذ يجثم على الحي وأنا أقطع أزقته القديمة. اندفعت نحو ميلانو وهي رابضة تحت أضواء دافئة. سرت على اثنين، ولكن أطرافي كانت تتداخل في بعضها ببطء. كنت مأخوذا بكلام مي طامو. وبين حين وحين أردد في خيالي بشيء من الامتعاض : آه عليك يا ميلانو.. يا بنت الكلب!

مضى وقت قصير ودخلت المدينة، توغلت بين بناياتها وأضوائها. سألت بخوف عن مقهى افريقيا. دلني أحد الصبيان فأسرعت الخطو. بحث عن صديقي وسط وجوه غريبة عني. اهتديت إلى شاب تذكرت وجهه بسرعة. دنوت منه. حييته ولم يرد التحية. انحنيت عليه لأقبل وجهه، فدفعني بكفه، وأخذت أتأمله عن قرب. بعد لحظة قلت له :

ـ لاشك أنك لم تعرفني. أنا بنسعيد.. هل تذكر هذا الاسم؟

اهتز ضـاحكا. ثم أخذ يتكلم وهو يحرك يديه ورأسـه ويضرب على ظهـر الطاولة، ويدفع الكأس فـيبـعدها عنه، ثم يقـربها. ويأخـذ كـأس الماء ويكرع جـرعـة، ثم يعـيـدها إلى مكانـهـا. وهكذا. وأنا مندهش، فـاغر الفم، جـاحظ العيـنين، كان الشـاب يتكلم. وكنت أرى شفـتيه تتحـركان بسرعة، لكنني لم أسـمع شيئا. أخـذ صدري يعلو ويهبط في حركة هائجة.

قلت بلسان متلعثم :

ـ من فضلك. أنا أسألك عن الصديق الذي كنا ندعوه المنصور بالله. ذلك الشـخص الذي أقـسم في وقت مـا أن يقرأ كـتب الدنيـا ويتزوج امرأة من فاس..

واستمر يتكلم. لم ألتقط صوتا واحدا مما يقول. تضاعف هلعي ولم أعد قادرا على الوقوف على اثـنين. وأخذت أنحني حتى وقفت على أربع، فنهض الشاب مشدوها، بينا تراجعت أنا خطوة، فتبعني، وهربت من بين الكـراسي والطاولات. حـاول عـبـثـاً أن يمسك بي. وتوقف. ومن بعـيد التفت نحـوه ورأيته يتكلم إلى الجـالسين، لكنني لم أسمع صـوته، تركت شفتيه تـتحركان بخفـة، وسرت هاربا على أربع. لم أعـرف إن كنت عـائدا من حيـث أتيت، أو أنني أتوغل في نفس المكـان، وفي كل رجل أرى اثنين، وفي كل امــرأة أرى اثنين، وأنا فقدت نصفـي، وعيون متعبة فـوق الرصيف ترقبني.. ولـم أكف لحظة واحدة عن أن أردد في خيالي :

«آه عليك يا ميلانو.. يا بنت الكلب!»

الوجـه

اعتراه ارتعـاش خفيف حينمـا استدار نحوي بجسـده الضامر، وأخـذ ينصت في اهتـمام، وصـدره يعلو ويهـبط، وعـيناه تومضـان بـريق لزج، وأنا أخاطـبه بنبـرات هادئة : ها هو وجـهك. أخيـرا ها أنت تراه بدون توقع. ثابـت كنجم صـغيـر مـضيء. صـاف. وديع. باسم. يناديك كـما يناديك ابنك «گـبّوت». فـتقـدم نحوه. اضـبط خطواتك ونبضات قلبك. رتب أنفاسك وتقـدم. خذه بيدك وضعه بحكمـتك المعهـودة بمكانه. لماذا أنت خائف؟ مـضطرب؟ تسكنك حيـرة شنيعة، ويغطي عـينيك سحاب دنـيء. شقّ عليك أن ترى ما حولك. وتتخيل أن شيئا مـا رهيبا قد حدث. هو الآن أمامك يطفح بقدر كـبير من المرح والخـفة. لم يحترق كـما قيل لك. فـمد يديك نحوه وتقدم بنصف بصرك لتأخـذ النصف الآخر وتعيده إلى مكانه. افعل. لا تتردد.. لا تخف. لا ترتبك. اضبط نفسك وتقدم.

... ولكنه يتنهد. يصعد أنفاسا طويلة أخاله يأتي بها من منطقة نائية في ذاته ويدفعـها متتالية. تصلني حـارة لافحة وأقول له : هدئ نفـسك، فالوجـه وجهك وهو لم يـحتـرق كمـا ترى. فحـافظ على هدوئك وتقـدم نحـوه. لا تفكر في جـارك «التهـامي». لماذا صـرت

تكرهه الآن؟ هل لأنه أعور، ولا يملك غير عين واحدة لا تسعفه؟ وأنت لا تصبّح ولا تمسّي على أعور.

ولكنه... يتنهد. يرفع رأسه نحوي. أراه منقبضا على غير عادته، كئيبا. وأناديه كما يناديه ابنه: كبوت. ويجيبني بصوت واهن يصلني بصعوبة على قربه مني. وأناديه ثانية، ويحرك شفتيه. يتكلم. ولكنني لا أسمع كل ما يقول، فاطلب إليه أن يرفع صوته قليلا، وينظر في وجهه وينسى كلام «صامو» فهو ليس فاعل خير كما يقول. ولسانه لا طعم فيه. وانت يا كبوت، تعرف الناس والاشياء. كما رأيتها أو قرأتها في مؤلفات شكسبير أو الجاحظ. فهذا وجهك. وصامو يكذب. أناديه. وأظل أناديه. كان كالنائم يتكلم في حلمه. وأنا أرقب حركة شفتيه البطيئة.

عندما نهضت في ذلك الصباح البارد وسمعت بما وقع أسرعت إليه في بيته. سألته عما حدث، فرد أنه نام بفراشه كالعادة بجانب امرأته. لم يكلمها في تلك الليلة. ولم تكلمه. لم يكونا متخاصمين. ولكن كما يحدث أحيانا يديران ظهرهما لبعضهما وينامان كشخصين لا يعرف أحدهما الآخر. وهو على كل حال لا يكرهها وإن كانت تتصرف وكأنها تملك البيت. ولكنه يكره جاره الأعور. فهو أول من رآه هذا الصباح. كان واقفا بالباب يتشمم الهواء، ويرى خيوط الشمس الأولى قبل أن يرتدي ثيابه ويقصد المقهى ليأخذ فنجان قهوة ويقرأ صحف الصباح. ومرّ جاره. تطلع إليه وأخبره أن اللوحة لا توجد بمكانها المعتاد. ثم لوى عنقه وتابع طريقه. تساءل كبوت كيف رأى التهامي بعينه الصغيرة الغمصاء مكان اللوحة فارغا؟ نكس رأسه متعجبا. ثم رفعه وأخذ يفرك عينيه. عاد إلى معمله الصغير ذي الألوان الفاتحة المتشابكة وهو ينفخ في الهواء ويضغط بقدميه على الأرض. اتكأ على مكتبه الاسطواني

الشكل وأخذ يتفرس في الجدار. تساءل بصوت عال وكأنه يحدث شخصا آخر : أين اختفت اللوحة؟ ظل حائرا. وبعد لحظة اتجه نحو غرفة نومه. زوجته ماتزال متمددة بالسرير. تبدو كما لو أنها بدون روح. لو وجدها متيقظة لكان سألها. قد تكون على علم بما جرى. ولكن يحتمل ألا تخبره بشيء. هي أيضا تغار. وجه كبوت، في انحناءة دائرية حادة، يملأ مساحة اللوحة ويبدو بعينيه المعدنيتين وشاربه الخفيف خليقا بإثارة انتباه «زينة». فمن يهمه أن يتسلل من النافذة ويخلع اللوحة، ثم يمضي بها بعيدا ليحرقها في الخلاء؟ لعل صامو هو الذي فعل. قال له يوما :

ـ وجهك يزعجني. فعيناك المتفجرتان بالرصاص لا تكفان عن ملاحقة زينة كلما مرت. انصحك بأن تغير مكان اللوحة.

فرد بشجاعة :

ـ إذا كنت تخاف عليها فاطلب منها أن تغير طريقها. أما أنا فلا دخل لك فيما أفعله ببيتي.

زينة نفسها لا تحشم. لم تغير طريقها. وعين كبوت كشمس صغيرة مدورة حادة الضوء تهزها من رأسها إلى قدمها. تجري في حرارة على جسدها كلما مرت قرب النافذة. تفعل ذلك دون خوف. فالمرأة بائرة. وإن حدث شيء فلا تابع ولا متبوع. قد يكون هذا كله أوهاما صغيرة. ولكن أمره شغلني. وهو نفسه قال لي لا بديل له عن وجهه. وزوجته أيضا تغار. هددته بأن تترك البيت إن لم يخلع اللوحة من مكانها. ولم تفعل.

قلت له :

ـ هذا وجهك. عثرت عليه فجأة. فما جدوى حزنك الآن؟

قال وعلى فمه ابتسامة صغيرة :

ـ أجل. هذا هو وجهي. ولكن..

قلت وقد تملكني إحساس بالسعادة :

ـ أهنئك. فهذا وجهك مازال على حاله. إنه بريء ومشرق. وأنت باستعادتك له لاشك أنك استعدت كل شيء.

قال :

ـ كان والدي يقول لي دائما من ضيع وجهه ضيع دنياه.

ونظر نحو اللوحة وهي موضوعة على الأرض. كان الوجه ثابتا يحدق في وقار وهدوء، مغمورًا بالنور. يرى، كما كان، الأشياء المبثوثة في البيت. يراها بدون عناء. يمتد نوره إلى الشارع حين يفتح كبوت نافذته. يرى الأجساد المندفعة، والرؤوس العالية والمنحنية، والأيدي تتشابك، والأرجل تحمل الأحذية، وأحصنة العربات، وسيارات الأجرة، وزينة تغدو وتروح رافلة في جلبابها الخفيف. كان فعلا يرى. وهو وجهه. وأنا لا أقول غير ما تسعفني عيني عليه. ولهذا هتفت : ها هو وجهك. بكل نضارته. ونضجه. وطراوته. فتقدم نحوه، وخذه بيديك وضعه بمكانه المعهود. وسألته في اندفاع واضح :

ـ ماذا تنتظر كي تعيد اللوحة إلى مكانها؟

ظل واجما لوقت طويل وأنا أترقب جوابه. ثم قا ل:

ـ هذا الاصفرار الذي يعلو وجهي. وهذا البياض الذي يغطي عيني.. لم أرسمه أنا. ثم هذا الغبار. وهذه الخطوط الرمادية. أنا واثق أن يدا حاولت أن تلطخ وجهي.

نطق بسخرية. فقلت له بصوت حازم :

ـ يبدو أنها لم تفلح. فما فعلته هذه اليد لا تتطلب منك إزالته

أي جهد. فهذه اللوحة كنز. وهي تمتلئ بعواطفك. ويظهر لي أنني لست مخطئا فيما أقول. وأنت أعلم بأسرار عملك.

علت وجهه حمرة مباغتة. بدا لي أنه يتهيأ لفعل شيء مثير. وفعلا قام من مكانه وضم اللوحة إلى صدره وهو يتمتم بكلام لم أتبينه. وفجأة سمعنا صوتا رقيقا يأتي من النافذة. التفتنا معا. زينة مكشوفة الرأس. لامعة العينين. ألقت تحية سريعة وطلبت من كبوت أن يحتفظ باللوحة كما كانت ويعيدها لمكانها. ودعته ألا يخاف عليها من شيء. وقبل أن تختفي رمت إليه بورقة مطوية على أربع. تلقفها بخفة ودسها بجيبه. نظرنا في بعضنا باندهاش بالغ. تعودت أن أراه أحيانا كظيم الوجه، بطيء الحركة. وحين أحدثه عن لوحة من لوحاته ينفرج وجهه ويمتلئ مرحا. هذه المرة قلت له :

ـ ها هو وجهك. وأنت سمعت كلام زينة. وأظن أنها صادقة.

فظل واجما يلوي يديه. ثم بلع ريقه وقال بلهجة حاسمة :

ـ سأفعل. وسأعيد لوجهي مظهره اللائق.

ثم نهض من مكانه. بدا أنه جادّ ولا يملك وقتا يضيعه. ولما سألته عن الورقة التي أعطته زينة تخيلت أنني ضايقته فهز كتفيه وقال لي :

ـ نقرؤها معا في وقت آخر.

كنت أعرف أنه لا يكذب، ولكن مع ذلك شاع في نفسي خوف غامض وتملكتني رغبة جارفة في قراءة الورقة، فوجدت نفسي انطق دون شعور :

ـ نقرؤها الآن!

مد بصره نحوي وفي جفنيه استرخاء خفيف. تفرّس في لحظة، ثم قال بصوت لا يخلو من قوة ويقين :

ـ لا تتسرع . وتأكد أننا حين نفتح الورقة سيطل منها وجه نابض وطيب مثل تفاحة أو كهذا الوجه الذي أمامك.

امسكت عن الكلام، وأنا أرى في عينيه رغبة راهب يتعبد، أو عاشق مهموم بطلعة أنثى. فلم أقل كلمة، وربت على كتفه، وتركته مع وجهه. وقبل أن أجتاز العتبة سمعته يرفع صوته قائلا :

ـ لابدّ أن نجتمع هذا المساء لترى وجهي وتقرأ معي الورقة..

داء الذئب

ركبت الحافلة والصوت الدافئ العميق مازال يرنّ بأذني. أتاني صباح أمس في وقت لم أتعود فيه على تلقي المكالمات الهاتفية فغادرت الفراش بسرعة، ورفعت السماعة في اضطراب، واستمعت لصوت ذي إيقاع مركز مضغوط يقول : آلو.. آلو.. تساءلت والسماعة ثابتة على أذني : من تكون صاحبة هذا الصوت؟ تماسكت. وانتظرت حتى خفّ عني الاضطراب وأجبت :

- آلو.. نعم..

وانطلق الصوت يقول في ثقة :

- آلو. سي آحمد. صباح الخير.

وصمتتْ قليلا، حتى تأكدت أني أتابعها على الخط فأردفت بنبرة طويلة :

- سامحني إن كنت أزعجتك. الوقت مازال مبكرا، وأنا أعرف أنك تتأخر في نومك. لن أطيل عليك. باختصار أنا احتجتك لعمل هام جدا. ولذا..

قاطعتها بأدب :

ـ سيدتي. من فضلك. أنا لم أعرفك من قبل . من تكونين؟
ردت ضاحكة :

ـ لا داعي لأن تتعرف علي الآن. حينما تراني فإنك لن تفاجأ. اسمي ناجية عبده. وأحدثك من تادلة لأطلب منك أن تزورني في أقرب وقت. وإذا لم يكن من مانع، فسأكون غدا في انتظارك بمحطة المسافرين. ومن تم ترافقني إلى بيتي..

صمتت لحظة، ثم استطردت :

ـ كما تشاء. وإن كنت تريد أن تلحق بي في بيتي اعطيك العنوان كاملا. وبكل تأكيد لن تجد صعوبة في العثور عليه. زيادة على هذا، فاسمي وحده يكفي. هل تتابعني؟

قلت بصوت هزيل :

ـ نعم سيدتي.

كتمت اندهاشي، وحاولت أن يبدو صوتي عاديا، وأنا أواصل :

ـ من تكونين أولا؟ أنا لم أسمع باسمك من قبل. ناجية عبده؟ ولا أعرف لماذا تطلبينني..

ضحكت. سمعتُ صوتها وهي تضحك، فخيل لي أننا معا وجها لوجه. وأنا أراها تضحك أمامي بصوت رقيق، متدفق. ومرة أخرى قالت لا داعي لأن أعرف أكثر، وأنني حين أراها لن افاجأ، وهي تريدني لعمل هام. استغربت . السماعة ماتزال ثابتة على أذني. يدي تمسكها بإحكام كما لو أنني خائف أن يصيبني الارتعاش فتسقط من بين أصابعي.

هتفت المرأة :

ـ آلو..

ـ آلو. أنا اسمعك.

ـ اتفقنا. ماذا تختار؟ أن انتظرك أو أقرأ عليك عنواني..

ـ لكن سيدتي..

قاطعتني :

ـ أرجوك سي آحمد. العمل هام جدا. وأظن أنه لا يهمني أنا وحدي، ولكن يهمك أنت أيضا. بل ويهم الناس جميعا.

تضاعف استغرابي. كيف أكون فجأة طرفا في عمل يهم الناس جميعا. تساءلت مع نفسي. وحركت شفتي لأقول كلمة. لم أجد شيئا ذا بال. بماذا أرد؟ رفعت رأسي، وأخذت أدور ببصري في أرجاء الغرفة. تعودت أن أغلق النوافذ، وأسدل الستائر حتى لا يزعجني نور الصباح. طلبت من المرأة أن تنتظر قليلا، فوضعت السماعة وأسرعت إلى النوافذ أفتحها. تدفقت أشعة الشمس وملأت الغرفة كلها. وقفت برهة أتشمم الهواء، حتى أحسست أن رئتي امتلأتا وعدت. رفعت السماعة وهتفت : آلو. جاءني هذه المرة صوت رجل مبحوح. جاف. صارم. فوجئت. وكدت ألقي السماعة من يدي. أخذت ألوك لساني وسط فمي.

بللت شفتي وسألت الرجل عن السيدة ناجية. كنت أتكلم كما لو أنني أتكلم من تحت الماء. ربما عرف الرجل. فطمأنني، وأكد لي أن العمل يهم الجميع، وأنا بدون شك طرف فيه. وأوضح أن ناجية تعد شريطا سينمائيا فريدا من نوعه. هكذا قال. وأضاف أنه سيجلب لها تقديرا فريدا من نوعه أيضا. والحكاية وما فيها أن رجلا مثل أيها الناس، خرج من بيته صباحا. وكان هذا الصباح في أوله، وكساء خفيف من الأنوار يغطي تادلة. فطاف أحياءها حاملا قُفة صغيرة. أمضى النهار يطلب حاجته فلم يدركها. طرق الأبواب.

تفرس في الوجـوه. شم الروائح. وعاد في المسـاء كليلا، خائبـا. فتح بابه ببطء، والكاميرا خلفه تتابـع حركاته. ألقى بالقُفة، ووقف قليلا، ثم أغلق البـاب دون أن يلج بيتـه. ولما التـفت وراءه رأى مـخـرجـة الشريط، وهي سيدة يافعة، فاهتز كيانه، وهرع نحوها..

وهنا قلت متسائلا :

- وهل أصلح أنا لهذا الدور؟

ردّ بيقين :

- أنا أعرفك جيـدا سي أحمد. أنا الذي اقترحـتك على السيدة ناجيـة. فـهيئـتك المخروطة، ورأسك الصـغـيـر الشـائك، وعـيناك المحترقتان، وحـاجباك المعـقوفان، وشـاربك الملفوف.. كلها كـفيلة بإنجاح العمل..

- لكن قبل هذا من تكون سيدي؟

- أنا مساعدها.

رد باختـصار. أدلمت عيني وسكت. السـماعة دائمـا ثابتة على أذني. أهذه ساعة نجاح لم أكن أحلم بهـا؟ ربما كان علي أن أحترف التمثيل منذ سنـوات طويلة. لو فعلت، لكنت في وضع أحسن. لكن فـاينْ ماجـا الخيـر ينفع.. والآن طز على شـغل خذّر أعـضائي ومـلأ فراشي بحشرات صغيرة لا تعرف الحياء.

أحسست بنشوة كاسـحة. وكدت استسلم لحلم طويل لولا أن باغتني صوتها :

- آلو..

قلت :

- آلو.. السيدة ناجية؟

قالت :

ـ نعم. سي آحمد.

سألتها ضاحكا :

ـ ألهذا تطلبينني؟

قالت :

ـ بدون شك، أنا عثرت على كنز يجهله الناس. ولاشك أن لمساعدي الفضل الكبير في ذلك.

ـ لكن سيدتي. هل الحكاية تقف عند النقطة التي حدثني عنها مساعدك؟

ـ آه. ربما ستكون بداية لعمل جديد. على أي. خذ عنواني. هذا أفضل. وحاول أن تحضر عندي غدا على الساعة السادسة مساء..

أسرعت إلى قلمي. دونت العنوان بمذكرتي وودعتها. أحسست أن الفتور فارقني وعادت إلي الحركة. شغلت المذياع. سمعت أغنية سخيفة. اطأفته فورا. غيرت ملابسي. كنت أهتز. دمي يجري كماء فائر. الآن بدل أن أمثل بين جدران باردة، سأمثل بين الأشجار والأعشاب وفي الأزقة المفتوحة على السماء. لكن عليّ أن أحذر. قد يركبني الغرور فأفشل من أول خطوة. هدأت نفسي. وتركت البيت. قصدت أقرب مقهى. شربت كأس شاي. ودخنت. كنت أستمتع بكل شيء. بدأت الحساب. يلزمني خمس ساعات كاملة لأكون في تادلة. ولذا عليّ أن أغادر الرباط في الواحدة زوالا. هذا ما يلزم دون شك. أسرعت عند صديقي رضوان. وجدته مقوسا فوق كرسيه كحرف معقوف. رفع نحوي بصره المتعب وأنصت لكل شيء. ثم تساءل مدهوشا : حقا هذا أم باطل؟ لم أفهم ما عنى. رأيته بعد لحظة يبتسم.

واستغرقنا الموضوع قليلا. ثم زودني بورقتين ماليتين وودعته..

ركبت الحافلة والصوت الدافئ العميق مازال يرن بأذني. ظل المقعد المجاور لي فارغا إلى أن همت الحافلة بالسير، فحضرت امرأة بدينة. تطلعت إلى وجهها بفزع وهي تسألني إن كان المقعد فارغا. رددت بالإيجاب وأدخلت جسدها إلى جانبي بصعوبة. لحمها الكثير ملأ المكان وغطى جزئي الأيسر. لم أكن محظوظا. ولكنني صبرت. هي نفسها عرفت. فاعتذرت وقالت إن رحلتي ستكون شاقة. وأنا أعرف ذلك. وهي تلهث، وتتعجل أن تنطلق الحافلة. لم يستغرق انتظارنا طويلا حتى أقلعت. وسارت تصعد وتنحدر. تميل يمينا وتميل يسارا، وأنا ثابت بمكاني. من النافذة تأتيني شمس لافحة، وخلفها أرقب الأرض العريضة تمضي بدورها. الأشجار الطويلة. الخيام. الصخور. البيوت المنحدرة. لا يوجد هواء كاف. وأنا دائما بمكاني. وحده رأسي يتحرك. وحدهما عيناي. ومن المرأة القاعدة بجنبي تتصاعد رائحة العرق. فأحول وجهي، وأتطلع ببصري بعيدا..

التفتت المرأة نحوي وخاطبتني متسائلة :

ـ ما رأيك أن أقوم بدور الخادمة؟ إذا فعلت فإنني سأتقاضى أجرا هاما من الشركة الممولة. ولكنه يبقى أقل من أجرك.

قلت باستغراب :

ـ وهل أنت أيضا ممثلة؟

قالت :

ـ يااااه.. كلنا ممثلون. وأنا لا تنقصني موهبة على ممارسة التمثيل. وأضافت بعد لحظة صمت :

ـ أيهـمـا أفـضل في نظرك أن أمـثل دور الخـادمـة أم دور الساحـرة؟ مع العـلـم أن لشـخصيـة الخادمـة وظيـفـة خطيـرة فـي تـطـور أحـداث الشـريـط. ولكن هـذا لا يهم. المهـم هو مـاذا يلائمني..

ابتـسـمتُ ابتـسـامة خـفـيـفـة. وأنا أرى أنهـا لا تصلح لشيء. وهمست لها في غير تردد :

ـ لاشك أن السيدة ناجية تفهم هذه الأمور.

أدارت عني وجهها وهي تقول :

ـ أنت لم تلتق بها بعد.

قلت بسرعة :

ـ فعـلا. ولكنني أعجـبت بصورتهـا كما نقلهـا لي مسـاعدها. وآمل أن تنجح في مهمتها. فهي امرأة طيبة على ما يبدو..

صمـتَت. صمتّ بـدوري. انشغَلت بعـرقهـا. فيمـا أنا فتـحت مجلة وأخذت أقـرأ. بعد وقت طويل لكزتني بمرفقهـا وهي تقول إننا على وشك الـوصـول. رفـعت بصـري ومـددت عنقـي إلى أعلى، ونظرت من فـوق الـرؤوس الهـامـدة. رأيت البنايات، فـأطلقت آهة طويلة. وقلت لهـا أنا سعـيد أن أمثل هنا. لـم تعلق. اكتفـت بإشارة خـفـيـفة من رأسـها. ثم صـمـتنا معـا حتى بـلغنا المحطة. نزلت المرأة واختفت بسـرعة. بحث عنها ولم أجدها. سـألت أحد الواقفين عن العنوان، فأرشدني إلى الطريق. وسرت ببطء. أنا أعرف تادلة. نزلت بهـا مـرات كـثيـرة. تناولت الطعـام. كـلـمت الناس. طفت الأزقـة والأماكن الـعامة. ولكـن خانتني الذاكـرة. دخلت حديقـة صغـيرة، رأيت امرأة ملثمـة تنظر إلي بعينين ملتهبـتين. لم أهتم. مر من أمامي كلب صـغيـر يندفع بصـعوبـة. ربما كان جـائعـا. تمنيت أن ينبح فلم

يفعل. استرحت قليلا. دخنت سيجارة. ثم تابعت الطريق. سألت مرة أخرى عن العنوان. استغربت أن يكون البيت في مكان قصي. بيت منحدر في زقاق مترب لا نبات فيه. طرقت الباب، ففتح رجل متوسط العمر. ضخم الرأس، صغير العينين، أشعث الشعر. سألته عن السيدة ناجية فأسرع لإخبارها. لم أندهش وأنا أراها. وجهها ليس غريبا عني. قامتها الفارغة. شعرها الأسود القصير. عيناها الصافيتان. كانت في فستان قصير خفيف يكشف عن عنقها وأعلى صدرها. مرة أخرى تأوهت. ثم لمت شفتي وهي توسع لي الباب مرحبة وتدخلني. جف حلقي وأنا آخذ مكاني بقربها. نبضات قلبي ارتفعت. وعيناي تدوران كالخائف من شيء لا يعرفه. أحضرت لي عصيرا وكنت في حاجة إلى قهوة سوداء أدفع بها عيائي. قعدت وشبكت يديها. أحنت رأسها لحظات، ثم رفعته وسددت في وجهي نظرة أربكتني ونحن منفردان في غرفة قليلة الضوء. ثم حركت كتفيها بخفة وشكرتني على العمل الذي قمت به، وقالت إنني إذا كنت أنوي الاستمرار فعليّ أن أحذر التفكير في لحظة تجمعني بها واعتذرت عن متابعة الكلام. فما يشغلها كثير وهي لا وقت لها. جمدت بمكاني ولم أبد أية حركة. رأيتها تقف، وتنادي على الرجل الذي فتح لي. حضر بسرعة. وطلبت منه أن يرافقني إلى الفندق لأقضي به ليلتي. وقالت وهي تودعني أنها ستجدد الاتصال بي. وحين اجتزت العتبة تنفست بقوة. ونظرت في ما حولي باستغراب وأخذت الطريق.

فهرس

مطبعة وليلي شارع علال الفاسي
✆ 31.40.48 فاكس 31.40.56 مراكش

بحركة هادئة، أدرتُ وجهه نحوي وقلت له بصوت واثق :

ـ اسمع. الآن، طاحت وصبناها. فماذا نسميها؟

ابتسم ابتسامة صغيرة جدا، وطوى الجريدة بين يديه قائلا :

ـ سمها ما شئت.

ورفع رأسه إلى أعلى. نظر في السماء قليلا، ثم أحناه ببطء وضحك بصوت مكتوم وهو يخفي أسنانه المحرجة، وقال هازئا :

ـ إنها كارثة.

قلت مؤكدا :

ـ هي كارثة بالفعل. لكن ما رأيك أن نسميها قصة؟

صمت مفكرا دون أن ينزع عينيه عن وجهي. وبعد لحظة رفع صوته قائلا :

ـ هي قصة إذن. هاتِها جميلة وندية..

صورة الغلاف : تكوين (1956) برونزية لمارينو ماريني

مكتبة
الأدب
المغربي

26 د

منشورات فضاءات مستقبلية

ص.ب. : 11074 ساحة باندونغ الدارالبيضاء - 20002

دار وليلي للطباعة و النشر شارع علال الفاسي ✆ 31.40.48 فاكس 31.40.56 مراكش